رثاء النبي ﷺ لدى الصحابة وشعراء عصره

(دراسة تحليلية)

بقلم

د. وفاء مصطفى أبو السعود

أستاذ الأدب والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالإسكندرية

تقديم

يعد الرثاء من الفنون الأصلية عند العرب ولهم فيه من درر القصائد وغرر النظم الكثير ولأنه فن يتصل اتصالاً مباشراً بالمشاعر والإحساسات وجدناه ينمو ويزدهر.

ويقيناً مني بأهمية عصر صدر الإسلام، وأحقيته بالدراسة اتجهت لدراسة شعر الرثاء الذي اتصل برسول الله ﷺ، فتناولت من خلال هذه الدراسة رثاء الصحابة للنبي ﷺ، فكشفت عن ذلك الإحساس بالهول لوفاته ﷺ، كما تناولت مراثي شعراء عصره بالدراسة والتحليل.

ولقد كان حسان بن ثابت من أكثر الشعراء رثاءً لرسول الله ﷺ، ويرجع ذلك إلى أن اتصال حسان بن ثابت بالنبي ﷺ وقربه منه، وتنصيبه نفسه للدفاع عنه وعن دعوته حياً، قد أثار فيه كوامن الشجن حين قبض رسول الله ﷺ، فإذا بشاعرنا حسان ينفعل بهذا الحادث المروع له وللمسلمين جميعاً، وإذا بيشاعرية حسان الغزيرة تنهمر عن سيل من المراثي نحس - ونحن نقرؤها - أثر الفجيعة في نفس شاعر الرسول ﷺ.

ولم يكن حسان وهو يرثي رسول الإسلام ﷺ معبراً عن نفسه وحده، أو عن المسلمين بصفة عامة، ولكنه صور مصيبة الأنصار في النبي أدق تصوير، حتى لقد خشى على مصير الأنصار بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

ولم يكن شاعرنا في هذا إلا معبراً عن شعور قومه، فهو أنصاري بل هو من السابقين منهم إلى الإسلام، فقد رثاه بقصائد عديدة تتفاوت طولاً وقصراً كما تتفاوت من ناحية العمق.

وربما كان مرد هذا التفاوت ما وضع على لسان حسان من شعر من ناحية، وبعد المدة الزمنية أو قربها من الحادث نفسه، واختلاف المواقف واستعداده الخاص في كل مرة يقول الشعر فيها من ناحية أخرى.

وقد ختمت الدراسة بعرض للظواهر الموضوعية والفنية لشعر الرثاء.

وجملة القول أن غرض الرثاء من الأغراض التي ظهر فيها أثر الطابع الإسلامي أي ظهور وأن كثيراً من القصائد قد شرفت برثاء الرسول ﷺ مصورة اللوعة والأسى، ترثي فيه غياب الوحي والتنزيل، والحكم العادل، والجانب اللين والرعاية للجميع.

وهكذا توارت من الوجود تلك الشخصية الفذة التي كانت تجذب الناس إلى الله بسمو خلقها وقوة بيانها وعظيم حجتها، وخفت ذلك الصوت الذي كان يجلجل في العالم فيملأ الدنيا بالدعوة إلى الله ودينه الحق، ومات محمد ﷺ بشخصه ولكنه لم يمت بمآثره وحسناته وما خلفه من ذكر طيب وأعمال صالحة وما تركه للناس من شريعة واضحة قوية تضمن للناس سعادتهم وهناءهم وترشدهم إلى ما فيه عزهم وسؤددهم إذا هم عملوا بها وساروا في الحياة على منوالها.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يهدينا جميعاً إلى سواء السبيل، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الرثاء في أدبنا العربي وتطوره من الجاهلي إلى صدر الإسلام

الرثاء في اللغة:

رَثَيْت الميت رَثْيا ورِثَاء ورِثَاية بكسرهما ومرثاة وَمَرْثية ورثوته: بكيته وعددت محاسنه ونظمت فيه شعراً وحديثاً عنه ورثى له: رحمه ورقَّ له، وامرأة رثاءة ورثاية: نواحة[1]. فالنائحة ترثي الميت تترحم عليه وتندبه. والندب كالرثاء بكاء الميت وتعديد محاسنه[2]، والتأبين الثناء على الشخص بعد موته[3].

والرثاء من أغنى الأغراض الشعرية الغنائية وأكثرها انتشاراً وألصقها بالنفس البشرية على الإطلاق، إذ هو فن البكاء على الميت، في أبسط تعريفاته، والتفجع على فقده، ومن منا لم يفجع بعزيز يتخطفه الموت منه قريباً أو صديقاً، ومن ذا الذي لم يتأثر بفقد عالم كبير أو عالم غرير؟

وفي الواقع فإنه لم يقل شئ قط كما قيل في باب الرثاء لأن الناس، كما قيل، لا ينفكون من المصائب، ومن لم يعدم نفيساً كان هو المعدوم دون النفيس، وأياً يكان الأمر فإن للموت خشية لا تتكرن ورهبة لا تدفع، وقديماً سئل أحد الأعراب عن المراثي لماذا هي أشرف الأشعار، فأجاب قائلاً: لأنا نقولها وقلوبنا محترقة. وحدث بعضهم قال: إن الأحنف بن قيس مر بامرأة تبكي ميتاً، ورجل ينهاها فقال له: دعها، إنها تندب عهداً قريباً، وسفراً بعيداً. فقد عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مثنين على خصالهم، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأن ذلك مصير محتوم.

ولا يخفى أن الحياة غارات وحرب ودماء يسقط في ساحتها الكثير من القتلى وبينهم الأخوان والأصدقاء فيبكي الأهل قتلاهم بقصائد حزينة يثيرون بها عواطف قبائلهم ويؤججون النار في قلوبهم حتى يندفع هؤلاء لسل السيوف وخوض غمار جولة جديدة

(١) القاموس المحيط، ج٤، ص ٣٣٤ طبعة الحلبي بمصر.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٩٦.

علهم يطفئون نار غيظهم ويشعلون النار في قلوب خصومهم. وبذلك يكون الثأر المتبادل ويقطع ما شاء الله من رؤوس الفريقين، وهكذا يدور دولاب الثأر شهوراً طويلة وأعواماً عديدة مداً وجزراً.

والصور التي بين أيدينا من هذا الرثاء صور راقية، إذ نراها تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم، ومثل هذا التعبير تسبقه مراتب كثيرة من تعبيرات ساذجة عن الموت والموتى، ولكن هذه التعبيرات لا تجدها في الشعر الجاهلي، لأنه كان قد فارق المراحل الأولى، وانتهى إلى مرحلة فنية راقية.

ومما لا شك فيه أن الرثاء بدأ عند ا لعرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى، بصورة تشبه أن تكون سحْراً حتى يطمئن الميت في مرقده، ولا تصيب روحه الأحياء من ورائه بشرّ، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن حتى انتهى إلى الصور الجاهلية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن قِبَل الموتى، ومحاولة ذكرهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم، مع التفكير في القدر وعجز الناس أمامه، وعبثه بهم ولعبه بحياتهم وموتهم.

ولعل من أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الأقيْال والأذواء في اليمن والأمراء في الحيرة وعند الغساسنة في الشام، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليداً لذكراهم وتمجيداً لأعمالهم وكأن هذه الصورة الأولى للتأبين والإشادة بفضائل الميت، على أنها صورة ساذجة. أما الصورة الجاهلية للتأبين فصورة معقدة، لا بما فيها من طول فحسب بل بما فيها أيضاً من وسائل فنية كثيرة، إذ نجد شعراء الرثاء يهتمون بصورهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم، مع العناية التامة بموسيقاهم وأوزانهم والملائمة بين أنغامهم وشعور الحزن الذي يتعمق قلوبهم وأفئدتهم.

ويبدو أنه كان يشيع في الجاهلية ضرب من العديد الذي نعرفه في مصر تنوح المرأة في موكب العزاء ويرد عليها صواحباتها، كما فعلت الخنساء عندما كانت تخرج إلى عكاظ لتندب أخويها صخر ومعاوية، وكانت هند بنت عتبة أم معاوية تحاكيها نائحة أباها[1].

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج٤، ص ٢١١.

وفي هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم يندبن موتاهنّ يوماً أو أياماً، بل كن يُطلن ذلك إلى سنين معدودات، ويقال أنهن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود، وكن يصنعن ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم والأعياد(١). ولعل في حلق رؤوسهن ما يجمع بين فني الهجاء والرثاء وما يفيد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت تقال للميت، وعلى قبره بصورة خاصة، حتى يطمئن في لحده. وبمرور الزمن تحولت تلك التعويذات إلى بكاء ونواح وندب حار.

والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاث تدور حول:

١- الندب:

بكاء ونواح على الميت بألفاظ مؤلمة عميقة الحزن تستمطر الدموع من العيون، وتصعد الآهات من الصدور، ويصحب ذلك لطم على الوجوه بالأكف.

ولم يقتصر الندب على النساء، فقد احترفه بعض الرجال الذين عرفوا بصوتهم الشجيّ المؤثر في استثارة النفوس وإبكاء الناس. وكان يصاحب هذا النوع من الرثاء ضرب بالصنوج ونقر بالدفوف، لزيادة جو العزاء حزناً وفجيعة. ولما جاء الإسلام نهي عن كل هذه الأفعال وما يشابهها. قال رسول الله ﷺ: "**ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية**"(٢).

٢- التأبين:

وهو ضرب آخر من الرثاء يتخذ شكل الثناء على الميت فيذكر فضائله ويعدد محامده، وكثيراً ما ينحلون جميع الفضائل والمثل العليا، من الشجاعة والمروءة والنجدة والوفاء وحماية الجار والحزم والحلم والكرم والحمية وما إلى ذلك من خصال الخير.

(١) أدب العرب في عصر الجاهلية، حسين الحاج حسن، ص ١٣٣.
(٢) صحيح البخاري، ج٢، ص ٣٢٢.

٣- العزاء:

وهو ضرب ثالث من الرثاء يتجه إلى الفكر في رحلة العمر ومصير الناس، فيذكرون الموت ويتعزون عنه بأنه حوض لابد من وروده، ولا يسلم منه لا غني ولا فقير، ولا حاكم ولا أمي، وقد سبقهم إليه الأجيال الماضية من سلاطين وأناس عاديين.

وبهذه الألوان الثالثة تتكامل صورة الرثاء باعتباره فناً شعرياً يشغل جانباً عظيماً من الشعر الجاهلي وكان له فرسانه من الرجال والنساء على السواء.

وليس صحيحاً من الوجهة الفنية البحتة ما ذهب إليه ابن رشيق وغيره من الباحثين من أنه "**ليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شئ يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أو عدمنا به كيت وكيت أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت**"(١).

فهو بذلك يرى أن الرثاء عبارة عن إشادة وتعداد للمناقب والفضائل تماماً مثل المديح غير أن الرثاء يختص بالميت، وأن على قائل الشعر أن يذكر في شعره ما يدل على أنه يرثي ميتاً لا أنه يمدح شخصاً حياً.

فإن هذا ليس صحيحاً لأن الشاعر منقاد لتفاعل مشاعره وإحساساته مع الحدث وهذا التفاعل في الغالب يكون نتيجة مؤثرات وعوامل نفسية لا يملك الشاعر إلا أن ينقاد لما تمليه عليه مما يجعل الرثاء شيئاً يختلف تماماً عن المديح لما في الرثاء من الأسى والحزن والالتياع والصدمة المروعة، ولما فيه أيضاً من التأسي بصائب الزمن وعبر الأيام وهذه مشاعر وأحاسيس وعواطف لا أثر لها في المديح بل أنها إذا وجدت في المديح أفسدته، كما أن تعداد المناقب والفضائل في الرثاء يختلف عنه في المديح لكونه نابعاً من عاطفة حزينة ومشاعر ملتاعة مما يكون له تأثير بالغ في التعبير والتصوير بل إن جانب الصدق والإخلاص والوفاء والتجرد من الأغراض والأطماع يتمثل بوضوح في الرثاء ولا نجد له أثراً في المديح الذي تدفع إليه غالباً رغبات وتحركه غايات واحتمالات وتوقعات للمنح والعطاء.

(١) العمدة لابن رشيق، تحقيق مفيد محمد قميحة، ج٢، ص ٣٥٨. وكذا نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص ٣٣. وكذا تاريخ الأدب العربي في الأندلس، إبراهيم علي أبو الخشب، ص ١٧٨، دار الفكر العربي، مطبعة المدني بالقاهرة. وكذا قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، بدوي طبانة، ص ٣٥٦، مكتبة الأنجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، الطبعة الثالثة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

وقد التفت ابن رشيق نفسه إلى هذا الأمر ولكنه دون أن يراعي ما يستوجبه ذلك من مغايرة تامة بين الرثاء والمديح إذ تراه يقول: "**وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا التلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً**".

ولكننا لا نتفق معه في ذلك أيضاً إذ نراه يجعل التفجع والحسرة والتلهف والأسف والاستعظام قاصراً على الملك أو الرئيس الكبير!

فهو هنا يجعل العواطف والمشاعر والأحزان وقفاً على هؤلاء، فقد يكون لهؤلاء الملوك والرؤساء مكانة رفيعة ودور عظيم ولكن ليس معنى ذلك أن تكون الدموع والأحزان وقفاً عليهم وإن كان الاستعظام لفداحة الخطب بفقدهم أمراً مقبولاً باعتبارهم لا يمثلون أشخاصاً وإنما يمثلون أقواماً وأمماً.

وقد حفل شعرنا العربي برثاء متفجع متلهف على حبيب تولى أو عزيز ارتحل أو صديق مضى، ومن الأمور الوجدانية الحزن والقرح، إلاأن الذي ألفه الناس أن يبكي المرء لفراق أهله، وفقدان أصدقائه، وموت أحبابه ونأى عزيز لديه، أو حبيب إلى روحه.

ومن شعر الرثاء الذي يغلب عليه التفجع والتحسر ويصاحبه التعزي والتأسي ما قاله لبيد بن ربيعة في رثاء أخيه أربد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وقد كنت في أكناف جار مضنة ... ففارقني جارٍ بأربد نافع
فلا جزع أن فرق الدهر بيننا ... وكل فتىً يوماً به الدهر فاجع
فلا أنا يأتيني طريف بقرحة ... ولا أنا مما أحدث الدهر جازع
وما الناس إلا كالديار وأهلها ... بها يوم حلوها وغدوا بلاقع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
وما البر إلا مضمرات من التقى ... وما المال إلا معمرات ودائع
وما المال والأهلون إلا وديعة ... ولابد يوماً أن تردّ الودائع[1]

فالشاعر ينظر إلى نفسه وإلى الناس وكأنهم أبناء فناء والجميع صائرون إلى البلى وتبقى حركة الزمان خالدة مستمرة تدور ولا تتعب، فالنجوم طوالع كل يوم والبيوت ثابتة لا تتحرك، ودولاب العمر يدور ويفنى الناس، ومن بين هؤلاء الذين أفناهم الدهر

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق إحسان عباس، ص ١٦٨، طبعة الكويت، ١٩٦٢م.

أخوه أربد الذي يضيق به ويحبه وما ينفع الحب والحرص؟ وما يفيد الجزع واليأس فلا سبيل إلى كل ذلك ما دامت هذه هي سنة الحياة وما دام جميع الناس لا يسلم أحد منهم من نوازل الدهر. فالناس كل الناس قد كتب عليهم العذاب وترقبتهم المصائب من كل باب، وبعد فهل لنا إلا أن نستهين بالدنيا. والذي يتأمل في الموت ويفكر في فناء الناس، لا يفرح بشئ من متاع الدنيا ولا يجزع إن ألَّمت به المصائب أو نزلت عليه الكوارث.

ينظر الإنسان إلى الديار فيراها عامرة آهلة زاهرة وما هي إلا أيام حتى لا تجد فيها غير رسوم مقفرة، وآثار بالية تتناوح بها الرياح وتقضي على الرسوم التي تركها الإنسان والتي تبقى هي ويزول واضعها فهذه شهادة شاعر معاصر لظاهرة الرثاء، الديار أبان أصالتها فهو يرى أن الإنسان مثل الديار من حيث فنائهما، والمرء كما يراه لبيد، يشبه النار في سرعة زواله وفنائه، فهو ما إن يراها ساطعة منيرة حتى تعود بعد لحظات رماداً هادئاً بالياً لا خير فيه ولا مطمع والإنسان في هذه الحياة لا يملك بيده سلاحاً يستطيع أن يدافع به عن نفسه، وإن كان ما يجمعه من مال ما هو إلا وديعة مستردة في يوم من الأيام حتى إنه هو نفسه وديعة أيضاً على هذه الأرض ولابد له من يوم يعود فيه إلى بارئه فيمضي مع أقرانه وجيرانه إلى وادي الفناء وكأنهم إبل يزجرها راعيها، يسوق ما تفرق منها ليضمه إلى القطيع السائر[1]. وهنا يؤكد لنا لبيد حقيقة كبرى: وهي أن الموت يصيب كل حي ولا ينجوا منه أحد.

ومن شعر الرثاء الذي يغلب عليه التفجع والاستعظام على الرؤساء الكبار ما قاله النابغة في حصن بن حُذَيفة بن بدر:

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم	وكيف بحصنٍ والجبالُ جنوحُ
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل	نجوم السماء والأديم صحيح
فعما قليلٍ ثم جاء نعيهُ	فظلَّ ندىُّ الحي وهو ينوح[2]

نجد الشاعر في هذه الأبيات يلجأ إلى المبالغة وإشراك الطبيعة في أحزانه. أما التفجع يظهر بوضوح في حديث الناس عن حصن والأسى يملأ قلوبهم فلا يستطيعون أن يخبروا بموته بل تظل الكلمة متجمدة على الشفاه لأنهم لا يصدقون أن حصناً مات وكيف ضج القوم في ناديهم بالبكاء والعويل حين جاء النعي بخبر موته.

(١) الحياة والموت في الشعر الجاهلي مصطفى عبد اللطيف جياووك، ص ١٢٤.
(٢) العمدة لابن رشيق، ج٢، ص ٣٥٨.

أما استعظام موته فقد أبان عنه عندما تعجب أن يموت حصن ثم تظل الجبال واقفة لم تتحرك وكذلك القبور لم تنشر موتاها، ولم تسقط السماء نجومها بل ظلت ثابتة مستقرة في أماكنها ووجه السماء صحيحاً كما كان العهد به وكأنه من هول المصيبة توقع أن يختل نظام الكون كله.

وإذا ما قارنا بين رثاء الرجال ورثاء النساء، وجدنا الأخيرات أكثر جزعاً وأعظم لوعة وأرق عاطفة، لأن طبيعة المرأة على ما يبدو أقرب إلى البكاء والأسى من طبيعة الرجل.

وما نلاحظه حول طبيعة هذا الرثاء أن المرأة قلما تتحدث عن آلامها النفسية بعمق، وإنما فضلت في رثائها البكاء والعويل وذكر الجوانب العامة من حياة الفقيد، وأكثر هذه الصفات يتعلق بالنواحي المادية فهو الحامي والمعيل والكريم والشجاع والفارس المغوار، وكأنها لم تجد في صدرها من لغة تعبر بها غير الدموع، فهي المترجم الوحيد لأحزانها. والنساء كما يقول ابن رشيق "النساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدهم جزعاً على هالك لما ركب الله عز وجل في طبعهن من الخور وضعف العزيمة.. وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء"(١).

أما الرجل فلديه القدرة على ضبط عواطفه وكبت أحزانه فيتجلد ويستغرق في المصيبة أكثر. وإذا أراد التعبير انفجرت همومه وصار الشعر متنفسه إلى الراحة من فداحة المصيبة.

ومن أشد شعر الرثاء لوعة وأسى وحرقة ولهيباً، ما جادت به قريحة الخنساء التي كان لها القدح المعلي في هذا الفن فقد جمع شعرها في رثاء أخويها صخر ومعاوية في ديوان ويعتبر هذا الشعر مثلاً حياً ولوعة والأسى وغلية الجزع والإصرار على الأحزان ورفض التعزي والسلوان ومن مراثيها الخالدة في أخيها صخر هذه القصيدة التي تقول فيها:

ما بال عينك منها دمعها سرب ... أراعها حزن أم عادها طرب(٢)
أم ذكر صخر بعيد النوم هيجها ... فالدمع منها عليه الدهر ينسكب

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٦٤.
(٢) البال: الحال والشأن، السرب: المسلك في خفية، أراعه: أفزعه.

يا لهف نفسي على صخر إذا ركبت ... خيل لخيل تنادي ثم تضطرب[1]
قد كان حصناً شديد الركن ممتنعاً ... ليثاً إذا نزل الفتيان أو ركبوا
أغر أزهر مثل البدر صورته ... صافٍ عتيق فما في وجهه ندب[2]
يا فارس الخيل إذا شدت رحائلها ... ومطعم الجوع الهلكي إذ اسغبوا
كم من ضرائك هُلاكٍ وأرملة ... حلُّوا لديك فزالت عنهم الكرب[3]
سقياً لقبرك من قبرٍ ولا برحت ... جود الرواعد تسقيه وتحتلب[4]
ماذا تضمن من جودٍ ومن كرمٍ ... ومن خلائق ما فيهن مقتضب[5]

فهي تقول عجيب أمر عينك إن دمعها ينسرب بغير إرادة ويذرف بغير توقف، تُرى هل فزعها حزن فانهمر دمعها أو عاودتها مسرة فسال ماؤها فرحاً، أم مجرد ذكر صخر عقب النوم هاجها وأسال مدامعها وإن بكاءها عليه سيستمر ينسكب طول الدهر بلا توقف ولا سكون.

وفي هذا المطلع براعة استهلال معجبة في القدرة على تحريك الانتباه ولفت النظر وهز مشاعر المتلقي، إن الصورة تستولي عليك وتؤثر فيك لأن أمامك عيناً أحمر جفنها ورقّت حوافيها حتى أصبح ينسرب دمعها بغير تحكم فيه أو سيطرة عليه.

ثم في تعميق الحيرة عن طريق خلق التردد بين متباعدين هما فزعة الحزن وهزة الطرب ما يجعلك ترجو أن يكون دافع الدمع أمر محبوباً فإذا بالحيرة المشوبة بالأمل المرجى قد انحمت بورود التساؤل المحزن بعدها على الفور حيث نجدها تقول "أم ذكر صخر..." إنها الفاجعة والكارثة بموت صخر، وإن مجرد ذكره أو تذكره بعد اليقظة من النوم يهيج دمع العين فينسرب دمعها، وإنه لبكاء مستمر لا آخر له يبقى الدهر ينسكب.

وتقفز على الفور مشاعر الخنساء إلى مبررات وتعليل هذا البكاء القتال فتسردها، ذلك أنها تدرك أن إسرافها في البكاء غير مألوف، وأنه مدعاة للتساؤل والحيرة قبل الإشفاق وبعده، ومن هنا فهي تسارع إلى ذكر مسوغات هذا البكاء الشاذ المسرف.

(١) اللهف: الحزن والأسى.
(٢) الغرة: من كل شئ أوله وأكرمه، الندب: أثر الجرح.
(٣) الضرائك: جمع ضريك والضريك الفقير البائس.
(٤) سقيا السقي ويقال في دعاء سقيا له ورعيا.
(٥) ديوان الخنساء، ص ٢٢، ٢٣.

ولكنها قبل أن تذكر الأسباب وتعلل هذا البكاء تؤكد حسرتها ولهفتها على فقده، إنه كان الفارس الذي لا يداني ولا يجاري إذا ركبت خيل لخيل وتنادى الفرسان واضطرب بهم ميدان القتال في كر وفر وطعن ورد.

إنه كان إذا نزل الفتيان إلى ساحة الوغي أو ركبوا إلى ملاقاة الهول حصناً شديد الركن عزيز المنال ممتنعاً على أعدائه ويحتمي به أولياؤه وأنصاره. وإنه لرجل بهي الطلعة مميز إلى جانب سيادته وشرفه بوضاءة الوجه وإشراقة وجمال روائه في صفاء أخاذ خال من الندب والبثور، وإنه مع ذلك لعظيم المحتد جيد الأعراق.

ثم نراها تناديه بمناقبه التي تستولي على مشاعرها، وتؤجج فيها لهيب الحزن عليه وتصفه بأنه كان يحمل فوق الرؤوس رايات المجد عالية - فتقول: يا فارساً فوق ظهور الخيل إذا اشتدت الرحائل فوقها وعلاها الفرسان وحانت ساعة احتدام الحرب واللقاء الصعب الرهيب، ويا صاحب الجود والعطاء، يا من تطعم الجائعين المشرفين على الهلاك كم من جوع هُلاَّك وأرملة نزلوا لديك فزالت عنهم كرب الفقر والحاجة دعاء لقبرك بأن يظل مهبط التكريم والإعزاز ولا برحت السحب العامرة بالمطر الغزير، والهادرة بالرعود تسقي قبرك وتصب عليه غزير أمطارها في فيض حبيب معطاء كما يفيض الضرع باللبن؟؟

ثم تختم القصيدة بقولها: إن قبرك لجدير بكل هذا وذلك أنه تضمن من الجود والكرم ما لا يدخل تحت وصف، وقد تضمن من الأخلاق العالية الرفيعة ضروباً لا اقتضاب في رفعتها، ولا انقطاع لا فهي رفيعة دائماً دون نقص أو توقف.

ومن المعروف أنه لم يكن من عادة الشعراء الجاهليين أن يقفوا في تأمل أمام ظاهرة الموت والتعمق فيها والكشف عما وراءها لأن ذلك لم يكن في استطاعتهم بحكم أميتهم ووثنيتهم وظروفهم فالموت ذاته أمر مألوف وقضاؤه حتمي وحكمه لا رجعة فيه ومعلوم أن غالبية القوم على وثنية وشرك وأنهم لا يؤمنون ببعث أو حساب أو آخرة وإنما هي حياتهم الدنيا يحيونها بخيرها وشرها وحلوها ومرها ثم يكون في النهاية الهلاك والفناء والعدم.

ولعل الإحساس بهذه النهاية المحتومة كان وراء هذا الالتياع والحزن أما بعد أن اعتنق العرب الإسلام وآمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر وقضاء الله وقدره وعرفوا أن هناك

بعثاً وحساباً وجنة ونار فقد كان هناك وجه آخر للأمر كله كان هناك التسليم بقضاء الله وقدره والامتثال لحكمه كما كان هناك الرجاء في حسن المآل والاعتقاد في حياة أخرى باقية هي خير من حياتهم الدنيا، وقد يبدو هذا المعنى بكل وضوح في رثاء الخنساء لأخويها صخر ومعاوية وما كان فيه من اللوعة والأسى واللهيب والجزع القريب العجيب ثم ما كان منها بعد إسلامها واطمئنان قلبها بالإيمان من تحريضها لبنيها الأربعة على خوض معركة القادسية وتشجيعهم على القتال فيها وحين نعوا إليها جميعاً تقبلت مصرعهم برباطة جأش ورحابة صدر ولم تقل إلا عبارتها المشهورة: "**الحمد لله الذي شرفني بموتهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته**"(١).

وكان من عادة شعراء الجاهلية كما يقول ابن رشيق "أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة في قلل الجبال والأسود الخادرة في الفياض وبحجر الوحش المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر"(٢).

والقدماء عندما يسلكون هذا المنهج في الرثاء كانوا يلتمسون العزاء والسلوى في هذه المخلوقات والكائنات التي كانوا يشاهدونها في بيئتهم تأوي برؤوس الجبال وتنطلق في الوهاد وتعمر ما شاء الله أن تعمر ثم حتماً يدركها الموت لا محالة وتمضي كأن لم تكن شيئاً موجود في يوم من الأيام وهكذا كانت تصاريف الأقدار مع الأمم السابقة، والشعوب والأقوام، والملوك العظام، الكل حتماً إلى زوال.

وقد يظهر هذا المعنى بوضوح في الأبيات التي أوردها "قس بن ساعدة الأيادي" أسقف نجران في خطية له بسوق عكاظ فيقول:

في الـــــذاهبين الأولـــــين	**مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر**
لمـــــا رأيـــــت مـــــواردا	**للمـــوت لـــيس لهـــا مصـــادر**
ورأيـــــت قـــــومي نحوهـــــا	**تمضـــي الأكـــابرُ الأصـــاغر**
لا يرجـــــع الماضـــــي إليَّ	**ولا مـــــن البـــــاقين غـــــابر**

(١) أعلام الأدب العربي، ص ٨٦ وما بعدها.
(٢) تاريخ الأدب ا لعربي أحمد حسن الزيات، ص ٢٠.

أيقينـــــت أنـــــي لا محـــــا لـة حيـث صـار القـوم صـائر[1]

وكان من عادة العرب في الجاهلية عقر الإبل على قبل الميت إكراماً له وتحية لمثواه وهذا ما قام به أحد أصدقاء النجاشي فقال:

عقـرت علـى قـبر النجاشـيِّ نـاقتي بـأبيض عضـبٍ أخلصـته صـياقلُه
وعلـى قـبر مـن لـو أنـني متُّ قبلـه لهانـت عليـه عنـد قـبري رواحلـه[2]

وكان ممن عقرت الإبل على قبره أيضاً ربيعة بن مكرم.

ومن ألوان الرثاء في العصر الجاهلي أيضاً أن يحي الإنسان صديقه بعد موته بصب الخمر على قبره فيأتي الندمان ويشربون الخمر، وعندما تدور الكأس ويأتي دور الصديق الميت، يصبون الخمر على قبره إحياءً لذكره. وهذا ما حصل للأعشى الذي اشتهر بحبه للخمرة ولذلك ظل قبره رطباً نديا[3].

يقول الأسدي في رثائه لنديمه:

أقـيم علـى قبريكمـا لسـت بارحـاً طـوال الليـالي أو يجيـب صـداكما
أصـب علـى قبركمـا مـن مدامـةٍ فـإن لم تـذوقاها أبـلٌ ثراكمـا
وأبكيكما حتـى الممات ومـا الـذي يـرد علـى ذي عولـةٍ أن بكاكمـا[4]

ويكثر في الرثاء الجاهلي أيضاً الدعاء بالسقيا لقبر الميت وقد يأتي هذا الدعاء ختاماً للقصيدة على نحو ما بينا في قصيدة الخنساء السابقة حيث تقول لأخيها صخر:

ســـــقيا لقـــــبرك ولا برحـــــت جـود الرواعـد تسـقيه وتحتلـب[5]

ومن ضروب الرثاء الجاهلي وأطرفها تلك التي قالها الشعراء في رثاء أنفسهم عند إحساسهم بدنو أجلهم، فناحوا على أنفسهم قبل أن ينوح عليهم أهلهم، فنراهم يصفون ما يصنعه به أهلهم بعد موتهم من ترجيل شعرهم ووضعهم في مدراج الكفن ثم لحدهم

(١) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حياتهم آثارهم – نقد آثارهم بطرس البستاني، ص ٢١٧.
(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج٣، ص ١٢٥٠.
(٣) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ج٩، ص ١٢٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٩، ص ١٢٦.
(٥) ديوان الخنساء، ص ٢٣.

ودفنهم وكان الشعراء بذلك ينعون أنفسهم إذا أحسوا داعي الموت ويكون ذلك منهم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير بالحقيقة الكبرى في حياة البشر جميعاً إلا وهي الموت.

ومن هذا اللون الطريف من الرثاء هذه الأبيات التي تنسب للمزق العبدي أو ليزيد بن حذَّاق ويقال إن أول من بكى على نفسه وذكر الموت على لسانه يزيد بن حذاق إذا قال:

هل للفتى من بنات الدهر من واق ... أم هل له من حمام املوت من راق[1]
قد رجلوني ومارجت من شعث ... وألبسوني ثيابا غير أخلاق[2]
ورفعوني وقالوا أيُّما رجل ... وأدرجوني كأنّي طيُّ مخراق[3]
وأرسلوا فتية من خير حسباً ... ليسندوا في ضريح الترب أطباقي[4]
هون عليك ولا تولع بإشفاق ... فإنما حالنا للموارث البالي[5]
كأنني قد رماني الدهر عن عرضٍ ... بنا فذات بلا ريشٍ وأفواق[6]

هكذا حان قضاه وواتاه أجله ومصيره دون أن يكون هناك له من حميم يزد عنه عادية الموت وأسرع أهله وذووه فمشّطوا شعره ودرجوه في ثياب جديدة ثم رفعوه وأسكنوه لحده تتلقفه يد من يد وكأنه شئ يتلهى به في أيدي صبية ثم يضرب بها بعضهم بعضاً إذ لا يملك من أمر نفسه شيئاً ولعله قد انفرد بهذا التصوير المفصل لهذه الحال بين الشعراء ثم هو بعد ذلك يهون شأن المال، لكل مالك فإنه سوف ينتهي إلى الوارث، والدهر يرمي بسهامه التي يصوبها إليه فيصيبه بها ولا يبالي والأبيات مؤثرة بما فيها من الصدق العاطفي والفطرة المؤثرة والإدراك الواعي لمصير الإنسان، والنهاية المحتومة التي ينتهي إليها البشر جميعاً ألا وهي الموت.

وهذه الصورة الجاهلية للرثاء استمرت في أدبنا العربي مع عصوره المختلفة، تارة تنمو وتارة تتطور، تحت تأثير نمو العقل العربي من جهة، وتطور حياة العرب واختلاف

(١) بنات الدهر: أحداثه ومصائبه. راق: الرقية لدفع الشر.
(٢) الترجيل: تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه. الشعث: تفرق الشعر انتفاشه. الأخلاق الممزقة البالية.
(٣) طى مخراق: العمامة التي يلهو بها الصبيان ثم يضرب بعضهم بعضاً.
(٤) الأطباق: المفاصل وأحدها طبق.
(٥) ولع بالشئ: لزمه ولج فيه. الإشفاق: الخوف.
(٦) رماه عن عرض: أي عن شق وناحية لا يباليه. الناقذات: السهام الأفواق: جمع فوق مجرى الوتر من السهم، انظر المفضليات، ص ٣٠٠، قصيدة رقم ٨٠.

الأحداث عليها من جهة ثانية، ولكنها في جملتها ترتد إلى هذه الصور الجاهلية وتشتق منها كما يشتق الفرع من أصوله.

وعندما جاء الإسلام هز العقلية العربية وترك الفكر ليعمق به التأمل ويتخذ له مساراً يتعلق بفكرة البعث وبحقيقة الإيمان بالله وبطلان ما عداه.

إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوا إلى الدار الآخرة وهو بكاء يتعمق في القدم منذ وجد الإنسان ووجد أمامه هذا المصير المحزن مصير الموت والفناء الذي لابد أن يصير إليه فيصبح أثر بعد عين وكأن لم يكن شيئاً مذكورا.

ومن الملاحظ أن الرثاء قد أصابه غير قليل من التطور والتغيير في صدر الإسلام، فقد استطاع الإسلام بتعاليمه أن يغير كثيراً من المفاهيم، كما أرسى نظرة جديدة إلى الوجود والموت وما بعده من حياة أخرى وبعث نشور وحساب وجزاء وخلود، على النقيض مما كان يعتقده الجاهليون. وقد كان لتلك النظرة، أثر واضح فيما صاغه الشعراء المسلمون من رثاء، فقد ترددت، على ألسنتهم معان جديدة أخذت في الظهور على استحياء منذ بدأ الصراع مع المشركين في مكة والمدينة ثم ازداد مع الأيام وضوحاً وكثرة وعمقاً.

كان الصراع في تلك الفترة الباكرة يرتكز على الدين باعتباره عقيداً ومنهجاً ومن أجل هذا الدين كانت هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وكانت بدر وأحد والخندق، وهي المعارك التي دارت الدولة المسلمة الناشئة في المدينة وكفار قريش وأصحاب الزعامة الدينية في مكة، وهي التي أذكت الشاعرية القرشية وأوجدت مجموعة أخرى من الشعراء يذودون عن الإسلام ويدافعون عنه.

وقد صدرت عنها مراث كثيرة تتأرجح بين الطرفين مع تأرجح النصر والهزيمة. وكان الرثاء في تلك الفترة يسير في اتجاهين. اتجاه تقليدي هو امتداد للرثاء في العصر الجاهلي، ويمثله أدق تمثيل شعراء قريش ومن آزروها. واتجاه تجديدي يستمد معانيه وأفكاره من الحياة الإسلامية الجديدة ويتأثر في صياغته وأساليب بالقرآن الكريم. وإن كان هذا الاتجاه أقل وضوحاً لأنه كان لا يزال في طور الطفولة وسوف يزداد وضوحاً في فترات تالية عند جيل من الشعراء نشأ في الإسلامي نشأة كاملة، ومن هذا الاتجاه نجد حسان بن ثابت يبكي قتلى بدر، ويتذكر أصحابه فيها، ومنهم نفيع ورافع وسعد ويؤكد في

رثائه لهم على المعاني الدينية الجديدة، من الإيمان بالقدر، والأجل المحدود، والجنة وما فيها من نعيم يقول:

ألا يـا لقـوم هـل مـا جـم دافـع ... وهـل مـا مضـى مـن صـالح العـيش راجـع
ذكـرت عصـراً قـد مضـى فتهافتـت ... بنـات الحشـا وانهـل مـني المـدامع
صـبابة وجـد ذكـرتني أحبـة ... وقتلـى فضـوا فـيهم نفيـع ورافـع
وسـعد فأضـحوا في الجنـات وأوحشـت ... منـازلهم والأرض مـنهم بلاقـع[1]

ويشير حسان في هذه القصيدة إلى ما كان يوم بدر من شدة القتال، ووفاء هؤلاء القتلى للرسول ﷺ وإجابتهم إياه وطاعتهم له فيقول:

وفـوا يـوم بـدرٍ للرسـول وفـوقهم ... ظـلالُ المنايـا والسـيوف اللوامـع
دعـا فأجـابوه بحـق وكلـهم ... مطيـع لـه في كـل أمـر وسـامع

ولعل هؤلاء الشهداء قد أعطوا صورة رائعة لما ينبغي أن تكون عليه حال المسلم مع النبي ﷺ من وجود الطاعة والامتثال حتى لو عرضه، ذلك للموت؛ فالموت قدر، ولكل أجل كتاب والملك لله وحده، والله يفعل ما يشاء، وهم بهذا يرجون الشفاعة يوم الحساب:

فمـا بـدلوا حتـى توافـوا جماعـة ... ولا يقطـع الآجـال إلا المصـارع
لأنهـم يرجـون منـه شـفاعة ... إذا لم يكـن إلا لنبـيين شـافع
وذلـك يـا خـير العبـاد بلاؤنـا ... ومشـهدنا في الله والمـوت نـاقع
لنـا القـدم الأولى إليـك وخلفنـا ... لأولنـا في طاعـة الله تـابع
وتعلـم أن الملـك لله وحـده ... وأن قضـاء الله لابـد واقـع[2]

وأغلب الظن أن هذه القصيدة مما نظمه حسان في فترة متأخرة، لأنه يصدرها بقوله "تذكرت" والتذكر لا يكون إلا بعد فترة قد تطول من النسيان، ولأنها مليئة بالمعاني الدينية التي رسخت في نفس حسان والتي تحتاج إلى فترة طويلة حتى ترسخ وتستقر ومن المعاني الجديدة على شعر الرثاء في العصر الإسلامي رثاء أعضاء جسم الإنسان ومن هذا الرثاء ما قاله عبيدة بن الحارث الذي تصدى مع حمزة وعليّ لعتبة وشيبة والوليد

(١) ديوان حسان بن ثابت، سيد حنفي حسنين، ص ٢٤١.
(٢) ديوان حسان بن ثابت، سيد حنفي حسنين، ص ٢٤١.

حين دعوا للمبارزة قبل القتال في غزوة بدر وقد قطعت رجله أثناء المبارزة، وعاش قليلاً بعدها، ثم مات.

فنجده في هذه القصيدة يحتسب رجله عند الله، ويرجو أن يبدله بها الجنة، لينعم بالعيش عيش الآخرة مع الحور أمثال التماثيل. يقول:

فإن تقطعوا رجلي فإني مسلم ... أرجى بها عيشاً من الله دانيا
مع الحور أمثال التماثيل أخلقت ... مع الجنة العليا لمن كان عاليا[1]

ومن ذلك أيضاً رثاء ابن مظعون لعينه وكان قد فقدها إثر لطمة، فقال يحتسبها عند الله ويذكر ما عوضه به من ثواب:

فإن تك عيني في رضا الرب نالها ... يدا ملحد في الدين ليس بمهتد
فقد عوض الرحمن عنها ثوابه ... ومن يرضه الرحمن يا قوم يسعد[2]

وقد أكثر الشعراء في عصر الإسلام من رثاء النفس وهو لون لم يشع وجوده من قبل ولم يستخدم على هذا النحو الكبير ومن ذلك قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي بكى فيها نفسه بكاءً حارً أو ذكر بناته من عبده وهن يضربن رؤسهن بالنعال وصدورهن بالجلود، والرجال وهم يبحثون له عن بئر يلقونه فيها ليواروا جثته وقد سربلوه بالأكفان ووسدوه ساعده:

أعاذل أبقى للملامة حظُّها ... إذا راح عني بالجليلة عائدي
فقالوا تركناه تزل نفسه ... إذا أسندوني أو كذا غير ساند

وقام بناتي بالنعال حواسراً ... وألصقن ضرب السبت تحت القلائد
يودون لويفدونني بنفوسهم ... قليباً سفاهاً كالإماء القواعد
قطأطأة لم ينبطوها وإنها ... ليرضى بها فُرَّاطها أم واحد
قضوا ما قضوا من رمها ثم أقبلوا ... إلى بطاء المشي غير السواعد

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص ٢٣.
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، ج١، ص ١٠٤، مطبع السعادة.

فكنت ذنوب البئر لما تبسلت وسربلت أكفاني ووسدت ساعدي[1]

لعله كان يستشعر قرب الموت وهو غريب عن دياره، أو لعله الإحساس بتفاهة الحياة وعدم جدواها بعد فراق أصحابه هو الذي دفعه إلى هذا اللون من الرثاء، فهو يرثي نفسه في معرض رثائه للآخرين، ولا يتوجه إلى الحديث عن نفسه إلا بعد أن ينكرهم في أبيات يبين فيها ما ألوا إليه وما خلفوه فيه.

ومن المعان الجديدة التي تناولها الشعراء في عصر الإسلام رثاء الأسرى والمفقودين واحتسبوا عند الله عز وجل موتاهم وعزوا أنفسهم بما ينتظرهم من نعيم وخلد وأجر عظيم.

فنرى الشمردل يحتسب عند الله موت أخيه؛ وفقد اغتيل في دار فرقة، وهو يدافع عن ثغر من ثغور الإسلام، وعاد سيفه وحمائله يحملان النبأ اليقين بمقتله؛ فقد عاد من دونه حين عاد الناس:

لعمري لئن غالت أخي دار فرقةٍ وآب إلينا سيفه وحمائله
وصلت به أثقالها الأرض وانتهى بمشواه منها وهو عف مآكله
لقد ضمنت جلدا لقوى كان يتقي به جانب الثغر المخوف زلازله
أقول وقد رجمت عنه فأسرعت إلى بأخبار اليقين محاصله

إلى الله أشكو لا إلى الناس فقده ولوعة حزنٍ أوجع القلب داخله
وتحقيق رؤيا في المنام رأيتها فكان أخي رمحاً ترفض عامله
سقى جدثاً أعراف غمرة دونه وبيشة ديمات الربيع ووابله[2]

ومن الملاحظ أن الجاهليين كانوا يدعون للميت بالسقيا ويستمطرون الديم على الأحداث أما الشعراء الإسلاميون، فيدعون للميت بالرحمة، ويستمطرون المغفرة كما في قول حسان بن ثابت في رثاء شهداء الرجيع.

صلى الإله على الذين تتابعوا يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا[3]

(١) ديوان الهذليين، ج١، ص ١٢٠: ١٢٣. القسم الأول تحقيق أحمد الزين، والقسمان الثاني والثالث تحقيق محمود أبو الوفا الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٥هـ.
(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ج٢، ص ٣٥٣.
(٣) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ١٢٨.

ويشيع في مراثي عصر صدر الإسلام - وخاصة مراثي المسلمين - الألفاظ والمعاني الإسلامية، ويكثر الاقتباس من القرآن، الكريم والحديث النبوي الشريف، فلا تكاد مرثية تخلوا من هذه الألفاظ وتلك المعاني، ولا تكاد كذلك تخلو من الاقتباس بصورة من صوره المختلفة.

رثاء النبي ﷺ لدى الصحابة

نزلت وفاة رسول الله ﷺ على الصحابة كالصاعقة لشدة حبهم له إياه ما تعودوه من العيش في كنفه، عيش الأبناء في حجر الآباء، بل أكثر من ذلك، ولم يكد بعضهم يصدق نبأ وفاته كما بينا سابقاً(١).

وكان ذلك يوم الثلاثاء وقيل: ليلة الأربعاء سحراً يوم الدفن وكان يوماً حزيناً في المدينة وكان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه وقال يا عبد الله اتق الله فإن في رسول الله أسوة حسنة(٢).

لقد كادت الجمادات تتصدع من ألم مفارقته ﷺ فكيف بقلوب المؤمنين، ولما فقده الجزع الذي كان يخطب في الناس عليه قبل اتخاذ المنبر حن إليه وصاح، وكان الحسن البصري إذا حدث بهذا الحديث يبكي ويقول هذه خشبة تحن إلى رسول الله ﷺ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه، وروى أن بلال ﷺ، كان يؤذن بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه فإذا قال أشهد أن محمداً رسول الله أرتج المسجد بالبكاء والنحيب، فلما دفن ﷺ ترك بلال الأذان.

أن الصدمة بفقد الأحباب تكون على قدر الحب وأي حب في الدنيا يبلغ حب هؤلاء الصحابة الأبرار لرسول الله ﷺ، وقد هداهم الله به وأنقذهم من الظلمات إلى النور وغير حياتهم وأنار عقولهم.

فلما مات فأي صدمة أبلغ من هذه الصدمة وأشدها أثراً فهذا عمر بن الخطاب ﷺ، القوي الشديد الباطش بالمبطلين هذا العملاق الكبير، يتضعضع، وينهار عند وفاة رسول الله ﷺ حب الرجل لرسول الله جعله يتصور أنه لن يموت وأنه عائد حتماً إليهم...، والحب حين يأخذ على الإنسان حياته يعطل عقله ويحجب تفكيره وهذا ما حدث لعمل العملاق العظيم، حين تهاو من عليائه، وانهار بنيانه أمام الحادثة الكبيرة ولكن قوة الإيمان لا تصنع ذلك كما حدث ذلك مع أبي بكر الصديق إنه مقام أخر إنه يحب رسول

(١) انظر السيرة النبوية أبو الحسن على الحسني الندوي، ص ٣٤٧، الطبعة الثانية، صفر ١٣٩٩هـ/مارس ١٩٧٩م، دار الشروق، جدة.

(٢) السيرة الحلبية المعروفة بأنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية على بن برهان الدين الحلبي الشافعي وبهامشها السيرة النبوية والآثار المحمدية السيد أحمد زيني المشهور بدحلان، ج٣، ص ٣٩٤ المكتبة التجارية – مطبعة مصطفى محمد.

الله أكثر من حب عمر ولكنه أقوى إيماناً من عمر وأشد تثبيتاً فلم يغب عقله كما غاب عقل عمر[١].

وقد ولج صحابة النبي ﷺ فن الرثاء، وبرعوا فيه وأجادوا ويكفي - لوضع أيدينا على مدى طروقهم هذا الفن - الاطلاع على ما نقله ابن سعد في طبقاته الكبرى من مراثٍ قالها صحابة رسول الله ﷺ، فيه بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

وقد كان على رأس من شارك في رثائه عليه السلام - ممن ذكرهم ابن سعد - أبو بكر الصديق[٢] وفي قول أبي بكر للشعر قضية فيها جدل، يروي السهيلي عن عائشة "كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر في الإسلام ومن أدرى بأبي بكر من ابنته المتأدبة، فالشعر المروي لأبي بكر غير صحيح أذن"[٣]. غير أننا نجد رأياً آخر أقوى وأوثق، يضطرنا إلى أن نميل إليه يروى تارة عن سعيد بن المسيب "كان أبو بكر شاعراً وكان عمر شاعراً وعلي أشعر الثلاثة"[٤].

ونحوا من ذلك عن الشعبي[٥]. ولم يكن أبو بكر يقول شعرا كثيراً، بل أبياتاً في بعض الأمور يمليها موقف أو حادثة، دون أن يقصد أن يروى عنه، أو ينشره ويذكر من شعر أبو بكر هذه الأبيات التي يرثي بها النبي ﷺ:

يا عين فابكي ولا تسأمي	وحق البكاء على السيدا
على خير خندف عند البلاد	د أمسى يغيب في الملحد[٦]
فصلى المليك ولي العباد	ورب البلاد على أحمد
فكيف الحياة لفقد الحبيب	وزين المعاشر في المشهد
فليت الممات لنا كلنا	وكنا جميعاً مع المهتدي[٧]

(١) حياة عمر محمود شلبي، ص ٥١، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت.
(٢) الشعر في رحاب النبوة دراسة أصولية يتحدث في موقف الإسلام من الشعر وحاله زمن الصدر الأول، مصطفى عيد الصياصنة، ص ١١١، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، منشورات نادي الباحة الأدبي،
(٣) الروض الأنف، ج٢، ص ٧٨.
(٤) العقد الفريد، ج٣، ص ٢٨٣.
(٥) الاستيعاب، ج٣، ص ١٣٩.
(٦) خندف: ولد إلياس بن مضر، أحد أجداد رسول الله ﷺ.
(٧) نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ج١٨، ص٣٩٩، ٤٠٠، وكذا محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، ص ٣٥٥.

على الرغم من تمالك الصديق نفسه عند الوفاة ليضبط انفلات المسلمين ويوقظهم من ذهولهم فإن قلبه كان يعتصر أسى وحسرة على رحيل صاحبه ورفيق هجرته. فلم يعد يجد للحياة آية قيمة فتمنى الموت كي يرافق النبي ﷺ في صحبته.

لقد كان أبو بكر الصديق أشد الناس تأثراً بوفاة رسول الله ﷺ فهو أول من آمن به وهو الصديق الذي لم يشك لحظة في كل ما يخبره به من السماء وهو صديقه ورفيقه في الغار وهو وزيره وعضده في المهمات فقال يرثي رسول الله ﷺ بقوله:

لمـــا رأيـــت نبينـــا متجـــدلاً	ضـــاقت علـــيَّ بعرضـــهن الـــدور
وارتعـــت روعـــة مســـتهام وإلـــه	والعظـــم منـــي واهـــن مكســـور[1]
أعتيـق ويحـك! إن حبـك قـد ثـوى	وبقيـــت متفـــرداً وأنـــت حســـير[2]
يـا ليـتني مـن قبـل مهلـك صـاحبي	غيبـــت في حـــدث علـــى صـــخور[3]
فلتحـــدثن بـــدائع مـــن بعـــده	تعيـــا بهـــن جـــوائح وصـــدور[4]

ويبث الصديق أحزانه ولواعج قلبه فتضيق الحياة به، وتضعف قدرته على المضي بعد أن رحل حبيبيه المصطفى ﷺ، وأبقاه وحيداً حسيراً. ويتمنى من جديد لو أن الموت قد اختطفه قبل رسول الله ﷺ.

وفي القصيدة التالية يظهر جزع الصديق في ذروته بعد أن يتأكد من أنه لن يرى رسول الله ﷺ فيدعو ربه أن يعجل بقيام القيامة ليكون مع صاحبه فيقول:

باتـــت تـــأويني همـــوم حشـــد	مثـل الصـخور فأسمـت هـدت الجسـدا
يـــا ليـــتني حيـــث نبئـــت الغـــداة بـــه	قـــالوا الرســـول قـــد أمســـى ميتـــا فقـــدا
ليـــت القيامـــة بعـــد مهلكـــة	ولا نـــرى بعـــده مـــالاً ولا ولـــدا
والله أثنـــى علـــى شـــئ فجعـــت بـــه	إذا تـــذكرت أنـــي لا أراك أبـــدا!

(١) الروعة: الفزعة، المستهام: الذي أسقمه الهم، الواله: الذاهب عقله حزنا، والوهن: الضعف.
(٢) الحب بالكسر: المحبوب، والحسير: المتلهف.
(٣) الجدث: القبر.
(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ج١٨، ص ٤٠٠، وكذا أسمى الرسالات، عبد الحميد الخطيب، ص١٢٨، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، دار الكتاب العربي، مصر كذا المستطرف في كل فن مستظرف شهاب الدين محمد الأبشيهي تحقيق وتقديم عبد الله أنيس الطباع، ج٢، ص ٥٠٥، ٥٠٦، دار القلم بيروت، لبنان وكذا محمد رسول الله ﷺ محمد رضا، ص ٣٥٦، وكذا ذهول العقول بوفاة الرسول ﷺ "اضمامة ذهول العقول فيما رثى به الرسول ﷺ لأبي تراب الظاهري، ص ، دار القبلة للثقافة الإسلامية وكذا شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين جمعة وحققته عبد الله بن حامد الحامد ص٤٠٨، ٤٠٩.

كم لي بعدك من هم ينصبني ... وفي العفاف فلم نعد له به أحدا
كان المصفاء في الأخلاق قد عملوا ... ما أطيب الذكر والأخلاق والجسد[1]

وتظهر الأبيات حالة الجزع التي ألمت بالصديق، حيث أصبح مهموماً حزيناً، مكسور الجناح لفقد أعز الناس إلى قلبه وأخذ يعزي نفسه بذكر صفات صاحبه.

ومن الملاحظ أن عمر بن الخطاب ﷺ كان الأكثر ذهولاً عند إعلان نبأ وفاة النبي ﷺ[2]. ولكنه أيقن بعد ذلك أنه قد مات فيحكي في القصيدة التالية قصة الوفاة وأمنياته السابقة في أن تطول حياة رسول الله ﷺ فقال:

لعمري لقد أيقنت أنك ميت ... ولكنما أبدى الذي قلته الجزع
وقلت يغيب الوحي عنا لفقده ... كما غاب موسى ثم يرجع كما رجع
وكان هواي أن تطول حياته ... وليس لحي في بقاميتٍ طمع
فلم تك لي عند المصيبة حيلة ... لأراد بها أهل الشماته والقذع
سوى أذن الله الذي في كتابه ... وما أذن الله العباد به يقطع
وقد قلت من بعد المقالة قولةً ... لها في خلوق الشماتين بها لشع
ألا إنما كان النبي محمد ... إلى أجلوافي به الوقت فانقطع
فماكشفنا البرد عن حر وجهه ... إذا الأمر بالجزع الموهب قد وقع
فدين على العلات منا بدينه ... ونعطي الذي أعى ونمنع ما منع[3]

ولم يكن خلفاء الرسول ﷺ رواة للشعر فحسب وإنما كانوا كما رأينا يقولون الشعر ويروى عنهم لا يكاد يأتي موقف يحرك وجدانهم إلا وكانوا مسرعين إلى الإنشاد بداهة.

أما أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة أرضعتهما حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية رضى الله تعالى عنها، وهو واحد من

(١) الحركة الأدبية في المدينة المنورة في عهد رسول الله ﷺ، سليمان عبد الرحمن، ص ٣٥٧، وكذا الطبقات الكبرى محمد بن سعد، ج٢، ص ٩٠.
(٢) شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين عبد الله بن حامد الحامد، ص ٣٩٩، وكذا قبسات من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام عبد المعطي الضاهر، ص ١٤٤، مكتبة الفارابي.
(٣) شعر الدعوة الإسلامية في عهدا لنبوة والخلفاء الراشدين عبد الله بن حامد الحامد، ص ٣٩٩، ٤٠٠. وكذا الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أ؛مد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي، ج٧، ص ٥٨٧. وكذا ذهول العقول بوفاة الرسول ﷺ "إضمامة ذهول العقول فيما رثى به الرسول ﷺ لأبي تراب الظاهري، ص.

الخمسة الذين شبهوا برسول الله ﷺ في خَلْقه وهم: جعفر بن أبي طالب، وقثم بن العباس، والسائب بن عبيد، وأبو سفيان بن الحارث، والحسن بن على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهم.

وأبو سفيان شاعر مشهور وسبق له شعر في هجاء الرسول ﷺ.

ويقال: إن أبا سفيان بن الحارث ﷺ ما رفع رأسه بعد ما أسلم إلى رسول الله ﷺ حياء منه، وكان إسلامه قبيل دخول رسول الله ﷺ مكة، ولقيه هو وابنه جعفر بن أبي سفيان بالأبواء فأسلما رضى الله عنهما، وقيل في قصة إسلامه: إن على بن أبي طالب ﷺ قال لأبي سفيان: إئت رسول الله ﷺ قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف عليه السلام: (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله ﷺ: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين).

ثم حسن إسلامه ﷺ، وقد رضى عنه رسول الله ﷺ، قال أبو سفيان: فيما يرويه ابن سعد في طبقاته - فلما لقينا العدو بحنين - وقد انكشف المسلمين أولاً - اقتحمت عن فرسي وبيدي السيف، ولم يعلم أني أريد الموت دونه وهو ينظر إلى - فانتهز العباس ابن عبد المطلب، وكان أحد الثابتين مع الرسول هذه الفرصة: قد فعلت فغفر الله له كل عداوة عادينها. وهكذا أراد الله لأبي سفيان أن يهب له فرصة الجهاد عن رسول الله ﷺ ليغسل بهذا الجهاد ما سبق له من عداوة وكراهية للإسلام ولرسوله(١).

جاء في رواية أخرى أنه حين أعلن إسلامه أمرا لنبي ﷺ على بن أبي طالب أن يبصره بالوضوء والسنة، ثم أمره أن ينادي في الناس أن الله ورسوله قد رضى عن أبي سفيان فارضوا عنه(٢)، ومما حكى عنه أنه حفر قبره بنفسه قبل موته بثلاث أيام، وحين حضرته الوفاة قال لأهله، لا تبكوا علىَّ فإني لم انتطف - أتلطخ بخطيئة منذ أسلمت(٣).

(١) الشعر في موكب الدعوة صادق عبد الحليم محمد، ص ١٢٢، مطبعة النهضة العربية ١٩٧٦م.
(٢) العشر في موكبا لدعوة صادق عبد الحليم محمد، ص ١٢٢. وكذا أبطال عقيدة وجهاد أحمد الشرباص، ص ٨٧، منشورات المكتبة العصرية صيدا - بيروت - السنة الرابعة - العدد الثامن، العشرون من شوال ١٣٩٢/نوفمبر.
(٣) الشعراء من أصحاب رسول الله ﷺ نايف بن هاشم الدعيسي البركاتي، ص ٣٣٦، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، مطابع الرشيد بالمدينة المنورة، السعودية. وكذا شعر السيرة النبوية، دراسة توثيقية، شوقي

كما يروى عنه أن الرسول ﷺ قال فيه: "**أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة**"(١).

ولذلك حزن أبو سفيان حزناً شديداً حينما توفى رسول الله ﷺ وفاضت شاعريته في رثائه الذي يدل على عاطفة صادقة وحزن عميق ومن ذلك قوله:

أرقت فبات ليلي لا يزول	وليل أفي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما	أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت	عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما غراها	تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتنزيل فينا	يروح به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه	نفوس الناس أوكربت تسيل
بني كان يجلو الشك عنها	بما يوصى إلهي وما يقول(٢)
ويهدينا فلا نخشى ضلالا	علينا والرسول لنا دليل
أفاطم إن جزعت فذاك عذر	وإن لم تجزعي ذاك السبيل
فقير أبيك سيد كل قبر	وفيه سيد الناس الرسول(٣)

لما لحق الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالرفيق الأعلى حزن عليه أبو سفيان بن الحارث حُزن الأم على وحيدها، وبكاه بكاء الحبيب على حبيبه، فحين سمع بالنبأ العظيم رثاه بقصيدة لامية بدأها بذكر ما اعتراه من أرق وحل به من هم بعد أن نزل

رياض أحمد، ص ٢٠٨، الطبعة الأولى ١٩٨٧م. وكذا سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرنؤوط حقق هذا الجزء حسين الأسد، ج١، ص ٢٠٤.

(١) مع الرعيل الأول، محب الدين الخطيب، ص ٩٠، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، المكتبة العلية بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

(٢) الضمير في عنها يعود على النفوس.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب النويري، ج١٨، ص ٤٠٠، ٤٠١. وكذا الحماسة البصرية للبصري، ج١، ص ١٩٥، عالم الكتب، بيروت، وكذا المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين بن محمد الأبشهي، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، ص ٥٠٦. وكذا الحركة الأدبية في المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين سليمان بن عبد الرحمن الزهير، ص ٢١٨، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، مرامر للطباعة الإلكترونية. وكذا تهذيب سيرة ابن كثير مروان كحك فرجا لأحاديث النبوية الشريفة، فتحي الجندي، ص ٧٣٢، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. وكذا السيرة النبوية للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير تحقيق مصطفى عبد الواجد، ج٤، ص ٥٥٩، ١٣٩٥هـ/١٩٧٦م، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.

المصاب به وبالمسلمين، فقد طال الليل وامتد البكاء - مهما كثر - قليل إذا ما قيس بعظم المصيبة، ثم نراه يصور حال المسلمين وما اعتراهم عشية أعلن الناعون خبر موته ﷺ فقد أحيط بهم وأصابهم ما يشبه الذهول، بل إن الأرض نفسها اضطربت وكادت تميد بهم لقد مات رسول الله ﷺ، وانقطع الوحي وأخلت شمس النبوة، إنها مصيبة تستك منها المسامع، مصيبة ثقيلة وذلك أحق ما سالت عليه النفوس وأريقت من أجله الدماء.

فقد كان وقع المصاب عليهم عظيماً، لأنه لم يكن رجلاً عادياً بل كان نبياً من أعظم الأنبياء، كان يجلو الشك عنهم عندما ينزل عليه الوحي بالقول الفصل فيما يختلفون فيه، وكان دليلهم، يهديهم فلا يخافون الضلال.

ثم نراه يتوجه إلى فاطمة ابنته بالعزاء ويدعوها إلى الصبر لتنال ثواب الله، ويقرر في ختام القصيدة أن قبر أبيها سيد كل قبر لاشتماله على الرسول ﷺ سيد الناس أجمعين(١).

(١) صور من حياة الصحابة، عبد الرحمن رأفت الباشا، ص ٢٨٣، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار النفائس، بيروت، لبنان. وكذا رجال مبشرون بالجنة، أحمد خليل جمعة، ص ٢٢٠، ا لطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م، دار البن كثير دمشق، بيروت.

رثاء النبي ﷺ
لدى شعراء عصره

مراثي رسول الله ﷺ كثيرة تعبر عن الحزن العميق الذي انطبع في قلوب الناس.

فقد كان لوفاة الرسول الكريم ﷺ أكبر الأثر وأعمقه عند المسلمين وفزع الناس ولم يصدقوا هذا النبأ المفجع سواء في مكة أو في المدينة، فقد خرجت المدينة عن بكرة أبيها، تشيع جنازة رسول الله ﷺ، وتوصله إلى مثواه الأخير، وبدأ يعلو النشيج والبكاء، في جميع الأرجاء، وارتفع صوت الشعر، ليصور هول الفاجعة ويعبر عن لوعة النفوس المؤمنة، وجزع الأفئدة لهذا المصاب، فبادروا إلى رثائه صلى الله عليه وسلم والتفجع عليه بشعر كثير وكما كان الأنصار أسرع الناس إلى نصرته كانوا أسرع الناس إلى بكائه.

فاجتمع حسان بن ثابت وكعب بن مالك وكثير من الشعراء على رثائه ﷺ في قصائد متنوعة تزخر بها دواوين الشعراء ومجاميع الشعر.

أما حسان بن ثابت[1] شاعر الإسلام الأول من حيث السبق الزمني كما أنه أيضاً وقف شعره بعد إسلامه على الذب عن الإسلام وسول الإسلام بخاصة ثم المسلمين بوجه عام.

(١) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي ﷺ وأمه الفريعة. ويكنى أبا الوليد وهو من فحول الشعراء، وقد قيل: إنه أشعر أهل المدن وكان من المعمرين المخضرمين عُمّرَ مائة وعشرين سنة: منها ستون في الجاهلية وستون في الإسلام وله في كلا العصريين إنتاج شعري ضخم. انظر ترجمته معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن أحمد العباس، حققه وعلق على حواشيه وصنع فهارسه محمد محيي الدين عبد الحميد، ج١، ص ٢٠٩، ٢١٠، ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م، عالم الكتب، بيروت. وكذا موسوعة المورد العربية دائرة معارف ميسرة مقتبسة عن موسوعة المورد منير البعلبكي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إعداد رمزي البعلبك، المجلد الأول، ص ٤٣٢، دار العلم للملايين، بيروت. وكذا خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري، ص ٧٥، الطبعة= =الثالثة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب القراقرة، بيروت. وكذا الموسوعة العربية الميسرة، محمد شيق غربال، المجلد الأول، ص ٧١٧، صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. وكذا دائرة المعارف الإسلامية، أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، المجلد السابع، ص ٣٧٥. وكذا الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة مقدم له الشيخ حسن تميم، راجعه وأعد فهارسه الشيخ محمد عبد المنعم العريان، ص ١٩٢، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ/١٩٩١م، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان. وكذا الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار للشيخ موفق الدين عبد الله بن قدامة القدسي، حققه وقدم له على نويهض، ص ٥١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، دار الفكر. وكذا نصوص مختارة من الأدب العربي دراسة وتحليل أدب صدر الإسلام خليل أبو زيب، ص ٣٥، دار

لقد كانت مواقف حسان بن ثابت رضي الله عنه تجاه الإسلام ورسوله ﷺ صادقة بينة، تمثل دور هذا الشاعر إلى جانب النبي ﷺ، ومدى صلابة رأيه وقوة حجته، وذلك في أساليب جزله، وحجج داحضة قوية، لقد دافع عن رسول الله ﷺ، وعن الإسلام بلسانه دفاعاً جاداً يليق بعظم المسئولية تجاه العقيدة ومكانتها، فأتى شعره يفيض بالشعور الصادق وينم عن روح الإيمان الحقيقي.

وحين لحق المصطفى ﷺ بالرفيق الأعلى رثاه حسان بقصائد ففي ديوان الشاعر أربع قصائد في رثاء رسول الله ﷺ(١) وهي التي أوردها ابن هاشم أيضاً في سيرته(٢). وأورد ابن سعد في طبقاته ثلاثا من هذه المراثي وأضاف إليها مرثيتين أخريين لم تردا في الديوان ولا في السيرة.

فقد فقد حسان بن ثابت بموت النبي ﷺ الدعم المعنوي الذي كان يقدمه الرسول ﷺ له. لذلك خص الشاعر صاحبه الراحل بقصائد رثاء صادقة عبرت عن خلجاته العاطفية وحزنه العميق(٣).

وقف حسان بن ثابت في الأماكن التي كان يتردد عليها رسول الله ﷺ قبل وفاته يبكي وهو يعدد الخصال التي تمثلت في شخص النبي ﷺ، قال حسان:

بِطيبـــةَ رَسْـــمُ للرســـولِ ومَعْهَـــدُ مُـــنِيرُ وقـــد تَعْفُـــو الرُّسُـــومَ وَتُهمَـــدُ(٤)
ولا تَمْحِـــي الآيـــاتُ مـــن دَار حُرْمَـــةٍ بهـــا مِنْبَـــرُ الهَـــادِي الـــذي كـــان يَصْـــعَدُ(٥)

عمار. وكذا أدب العربي في صدر الإسلام حسين الحاج حسين، ص ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. وكذا قطوف شعرية، جمع وترتيب محمد أمين عبد الرحمن، ص ٧٢، الرياض ١٤٢٣هـ، مطابع الأيوبي. وكذا في الأدب العربي القديم عصره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسة منه العصر الجاهلي – صدر الإسلام – العصر الأموي، محمد صالح الفطي، ج١، ص ٢٧٥، دار الأندلس للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(١) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبيى، ج٤، ص ٦٦٦ وما بعدها.

(٣) حسان بن ثابت حياته وشعره، إحسان النص، ص ١٩٣، دمشق دار الفكر. وكذا شعراء حول الرسول ﷺ، عبد الله بن محمد أبو داهش، ص ٣٢، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، إصدار نادي المنطقة الشرقية الأدبي. وكذا السيرة النبوية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ج٤، ص٥٥٦، ١٣٩٥هـ/١٩٧٦م، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

(٤) طيبه: اسم مدينة النبي ﷺ. والرسم: ما بقى من آثار الدار. وتعفو: تدرس وتتغير. وتهمد: تبلى.

(٥) تمحي: تزول. والآيات: العلامات.

وواضحُ آثارٍ وبَاقِي مَعالِمٍ ... ورَبْعُ لـه فيه مُصَلّى ومَسْجِدُ[1]
بها حجراتُ كان ينزلُ وَسْطَهَا ... من اللهِ نُورُ يُسْتَضَاءُ ويُوقَدُ[2]
مَعَارِفُ لم تُطْمَسْ على العَهْدِ آيُها ... أَتَاهَا البلَى فالآي منها تَجَدُّدُ[3]
عرفتُ بها رَسْمَ الرَّسُولِ وعَهده ... وقَبْرا بَهَا واراه في التُّرْبِ ملْحِدُ[4]
ظللتُ بها أَبْكِي الرسُولَ فأسعَدَتْ ... عيونٌ ومثلاها من الجَفْنِ تُسْعِدُ[5]
تذكرن آلاء الرسولِ وما أَرى ... لها مُحْصِيًا نَفْسِي فَنَفْسِي تَتَلَّدُ[6]

مفَجَّعَةٌ قد شَفَّها فَقْدُ أَحْمَدٍ ... فَظَلَّتْ لآلاء الرَّسُولِ تعَدِّدُ[7]
وما بَلَغَتْ من كُلِّ أَمْرٍ عَشِيرَةُ ... ولكنَّ لِنَفْسِي بَعْدُ ما قَدْ تَوجَّدُ[8]
أَطَالَتْ وُقُوفًا تَذْرِفُ العَيْنُ جُهْدَهَا ... على طَلَلِ القَبْرِ الذي فيه أَحْمَدُ[9]
فبورِكتَ يا قَبْرَ الرَّسُولِ وبُورِكَتْ ... بلادَ ثوى فيها الرَّشِيدُ المُسَدَّدُ
وبُورِكَ لَحْدٌ مِنكَ ضُمِّنَ طَيِّبًا ... عليه بِنَاء من صَفِيح مُنَضَّدُ[10]
تُهيلُ عليه التُّرْبَ أَيْدٍ وأَعْيُنُ ... عليه وقد غَارَتْ بذلِكَ أَسْعُدُ[11]
لقد غَيَّبُوا حلْمًا وعلْماً ورَحْمَةً ... عَشِيَّةَ عَلَّوهُ الثَّرَى لا يُوَسَّدُ
وراحُوا بُحزْنٍ لَيْسَ فيهم نَبِيُّهمْ ... وقد وَهَنَتْ منهم ظُهُورُ وأَعْضُدُ
يُبَكُّونَ من تبكِي السَّماوات يومَه ... ومن قَدْ بَكَتْهُ الأرضُ فالنَّاسُ أَكْمَدُ[12]
وهل عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيُّةُ هَالِكٍ ... رَزِيَّةَ يَوْمٍ مَاتَ فيه مُحَمَّد
تَقَطَّع فيه مَنْزِلُ الوَحْيِ عَنْهُمُ ... وقد كان ذَا نُورٍ يَغُورُ ويُنجِدُ[13]

(١) المعالم: جمع معلم، وهو ما يعرف به الشئ.
(٢) الحجرات: جمع حجرة يعني مساكنه ﷺ.
(٣) لم تطمس: لم تغير.
(٤) الملحد: الذي يضع الميت في لحده.
(٥) تسعد: تعين.
(٦) آلاء: النعم، جمع آلي وإلى (بفتح الهمزة وكسرها وتحريك اللام).
(٧) شفها: أضعفها.
(٨) العشير: العشر. وتوجد، من الوجد: وهو الحزن.
(٩) تذرف العين: تسيل بالدمع. والطلل: ما شخص من الآثار.
(١٠) الصفيح: الحجارة العريضة. والمنضد: الذي جعل بعضه فوق بعض.
(١١) تهيل: تصب. انظر تاريخ الأدب العربي الأدبي القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، عمر فروخ، ج١، ص ٣٣، الطبعة الثانية بيروت، ذو القعدة ١٣٨٨هـ/ فبراير ١٩٦٩م، دار العلم للملايين، بيروت.
(١٢) أكمد: أحزن.
(١٣) يغور: يبلغ الغور، وهو المنخفض من الأرض. وينجد: يلغ النجد، وهو المرتفع من الأرض.

يَـدْلُّ علـى الـرَّحْمن مـن يَقْتَـدي بِـهِ ... ويُنْقِـذُ مـن هَـوْلِ الخزَايَـا ويُرشِـدُ
إمـامُ لهـم يَهْـدِيهم الحَـقَّ جَاهِـدًا ... مُعَلِّـمُ صِـدْقٍ إن يُطيعـوهُ يَسْـعدُوا
عَفُـو عـن الـزَّلاَّتِ يَقْبَـلُ عُـذْرَهُمْ ... وإن يُحْسِـنُوا فـالله بـالخيِّر أَجْـوَدُ
وإن نَـأبَ أَمْـرَ لم يَقُومُـوا بِحَمْلِـهِ ... فمـن عنـده يَتَسَـير مـا يَتَشَـدَّدُ
فَبَيْنَـاهُمُ في نِعْمَـةِ اللهِ بَيْـنُهُمِ ... دليـلُ بـه نَهْـجُ الطَّرِيقَـةِ يُقْصَـدُ[1]
عزيـزٌ عليـه أن يَجُـورُوا عـن الهُـدَى ... حَـرِيصٌ علـى أَنْ يَسْـتَقِيمُوا وتَهْتَـدُوا

عَطُـوفُ علـيهم لا يُثَنِّـي جَنَاحـه ... إلى كَنَـفٍ يَحْنُـوا علـيهم ولَيْمِهـدُ[2]
فَبَيْنَـاهُمُ فِـي ذلـك النُّـور إِذْ غَـدَا ... إلى نُـورهم سَـهْمُ مـن المَـوْتِ مُقْصَـدُ[3]
فأصـبح مَحْمُـودًا إلى الله رَاجعًـا ... يُبَكِّيـه حـقُّ المرْسَـلاتِ ويَحْمَـدُ[4]
وأَمْسَـتْ بـلادُ الحَـرْمِ وَحْشًـا بقاعِهـا ... لِغَيْبَـةِ مـا كَانَـتَ مـن الـوَحْيِ تَعْهَـدُ[5]
قِفَـارًا سـوى مَعْمُـورَةِ اللَّحْـدِ ضَـافَهَا ... فَقِيـدٌ يُبَكِّيـه بَـلاطُ وعرْقَـدُ[6]
ومَسْـجِدُهُ فالمُوحشَـاتُ لِفَقْـدِهِ ... خـلاءٌ لـه فيـه مَقَـامُ وَمَقْعَـدُ
ومـا الجَمْـرَةِ الكُبْـرَى لـه ثُـمَّ أَوْحَشَـتَ ... دِيَـارُ وعَرْصَـات ورَبْـعُ ومَوْلِـدُ[7]
فَبَكَـيِّ رَسـولَ الله يـا عَـيْن عَبْـرةً ... ولا أَعْرِفَنْـكِ الـدَّهْرَ دَمْعَـكِ بَحْمَـدُ
ومَالِـكِ لا تَـبْكِينَ ذا النِّعْمَـةِ الـتي ... علـى النـاس مِنْهَـا سَـابِغٌ يَتَغَمَّـدُ[8]
فَجُـودِي عليـهِ بالـدُّمُوع وأعْـوِلي ... لِفَقْـد الـذي لا مِثلُـه الـدَّهْرُ يُوجَـدُ[9]
ومـا فَقَـدَ المَاضُـونَ مثـلَ مُحَمَّـدٍ ... ولا مثلُـه حتـى القِيَامَـةِ يُفْقَـدُ
أَعَـفَّ وأَوَّفَـى ذِمَّـةً بعـدَ ذِمَّـةٍ ... وأَقْـربُ مِنْـهُ تَـائِلاً لا يُتَكَّـدُ[10]
وأَبـذَل مِنْـهُ للطرِّيـفِ وتَالِـدٍ ... إِذَا ضَـنَّ مِعْطَـاءُ بمـا كـان يُتلِـدُ[11]

(١) النهج: الطريق البين.
(٢) الكنف: الجانب والناحية.
(٣) مقصد: مصيب، يقال: أقصد السهم: إذا أصاب.
(٤) المرسلات هنا الملائكة. ويروي "جن المرسلات" يريد الملائكة المستورين عن أعين الآدميين.
(٥) بلاد الحرم (بضم الحاء وكسرها): يعني مكة وما اتصل بها من الحرم.
(٦) ضافها: نزل بها. وبلاط: مستو من الأرض. والغرقد: شجر.
(٧) عرصات: ساحات، سكنت الراء ضرورة
(٨) سابغ: كثير تام. ويغمد: يستر
(٩) أعولي: ارفعي صوتك بالبكاء
(١٠) لا ينكد/ لا يكدر بالمن الذي يفسد التائل.
(١١) الطريف: المال المستحدث. والتالد: المال القديم الموروث. وضن: بخل. ويتلد: يكتسب قديماً.

وأَكْـرَمَ صِـيتاً في البيـوت إذا انْتَمـى ... وأَكْـرَمَ جَـدَّ أَبْطَحِيًّـا يُسَـوَّدُ[1]
وأَمْنَـع ذِرْوَاتٍ وأثبتـت في العُـلاَ ... دَعَـائم عِـزٍّ شَـاهِقَاتٍ تُشَّـيدُ[2]
وأَثْبَـتَ فَرْعًـا في الفُـرُوع ومَنْبَتًـا ... وَعُـودًا غَـداةَ المُـزْنِ فـالعُوُدُ أَغيَـدُ[3]

رَبَـاهُ وليـدًا فاسْـتَتَمَّ تَمَامَـهُ ... علـى أَكْـرَمِ الخَيْـرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّـدُ
تَنَاهَـتْ وَصَـاةُ المُسْـلِمينَ بِكَفِّـهِ ... فـلا العِلْـمُ مَحْبُـوسٌ ولا الـرَّأيُ يُفْنَـدُ[4]
أَقُـولُ ولا يُلْفَـى لِقَـولِي عَائِـبٌ ... مِـن النَّـاسِ إلا عَـازِبُ العْقـلِ مُبْعَـدُ[5]
ولـيس هَـوَائِي نَازعًـا عـن ثَنَائِـهِ ... لَعَلـي بِـهِ في جَنَّـةِ الخُلْـدِ أخْلَـدُ
مـع المُصْـطَفْى أرجـُو بِـذاكَ جَـوارَهُ ... وفي نَيْـل ذَاكَ اليَـوْم أَسْـعَى واجَهـدُ[6]

يطالعنا من شعر حسان بن ثابت لون وجداني رهيف، يعبر عن أدق أحاسيس الشاعر وأشفها في نفسه الملتاعة. إنه شعر وداع الرسول ﷺ، وقد فارق الحياة بعد أن أتم مهمته، وبلغ رسالة ربه، ولعل ثقل الفاجعة المفاجئ الذي عقد ألسنة الصحابة آنذاك، وأطاش العقول قد لفّ في صورته شاعر الرسول ﷺ، فانطلق مستطار اللبّ يرثيه بأنات

(١) الصيت: الذكر الحسن. والأبطحي: المنسوب إلى أبطح مكة، وهو موضع سهل متسع.
(٢) الذروات: الأعالي. وشاهقات: مرتفعات.
(٣) المزن: السحاب. وأغيد: ناعم متثن.
(٤) يفند: يعاب
(٥) عازب العقل: يعيد العقل.
(٦) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٣٧٧: ٣٨٠، وكذا الحركة الأدبية في المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين سليمان بن عبد الرحمن الزهير ص ١٥٥/ ١٥٧ الطبعة الثانية ١٤١٦هـ/١٩٩٦م مرامر للطباعة الإلكترونية، وكذا محمد رسول الله ﷺ محمد رضا ص ٣٥٦، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. وكذا شعر عصر صدر الإسلام من منظور التطور الإسلامي محمد عادل الهاشمي، ص ٢٩. وكذا موسوعة الشعر العربي اختارها وشرحها وقدم لها مطاع صفدي وإيليا حاوي أشرف عليها خليل صاوي التحقيق والتصحيح نصاً ولغتاً ورواية أحمد قدامة الشعر المخضرم المجلد الخامس ص ٨٢ وما بعدها شركة خياط للكتب والنشر بيروت لبنان ١٩٧٤م. وكذا السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص ٦٦٦: ٦٦٩. وكذا أدب غزوات الرسول ﷺ أخبارها وأشعارها موفق فوزي الجبر ص ١٩٩ و ما بعدها الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م دار الكتاب العربي. وكذا السيرة النبوية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ج٤ ص ٥٥٦ وما بعدها ١٣٩٥هـ/١٩٧٦م دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان. وكذا حسان بن ثابت شاعر النبوة والإسلام رحاب عكاوي الطبعة الأولى ١٩٩٦م دار الفكر العربي بيروت. وكذا تهذيب سيرة ابن كثير مروان كحك ص ٢٢٩ وما بعدها. وكذا تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون ص ٣٢٢ وما بعدها. وكذا مستشارون حول الرسول على بن عائد المالكي ص ١١٣ وما بعدها الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية مركز خدمة المؤلف. وكذا النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي عبد الملك بن حسين ص ٢٣٤ و ما بعدها. وكذا العصر الإسلامي شوقي ضيف ص ٨٣ الطبعة التاسعة دار المعارف.

باكية، وعيون ملأى بالدمع قد أرمدها السهاد، فنراه يبدأ قصيدته الطويلة والتي تبلغ عدة أبياتها ستة وأربعين بيتاً بوقفة متميزة على الرسوم يذكر فيها أن بطيبة مدينة الرسول ﷺ، رسم ومعهد منير في حال تعفو فيه الرسوم وتزول ولكن الآيات لا تنمحى من مسجد حرام فيه المنبر الهادي الذي كان النبي يصعد عليه، وفيه آيات واضحة ومعالم باقية ومنزل له فيه مصلى ومسجد، وفي تلك الدار حجرات كان ينزل فيها نور مضئ من الله هو الوحي الذي يستضاء به ويهتدي، هذه المعالم لن تطمس ولو طال عليها العهد، وإذا أدرك البلى المعالم، فإن آياتها تتجدد، ثم يوضح حسان بن ثابت أنه في تلك الدار عرف بها أثر الرسول وعهده وقبره الذي دفن جثمانه فيه.

هذه الوقفة لا تستطيع أن نصفها بأنها وقوف على أطلال قد بليت وذهبت معالمها كما نرى في مطالع القصائد الجاهلية وكما نرى في مطالع قصائد صدر الإسلام بل تستطيع أن نقول إنها وقفة على مشاهد نور ومنازل وحي ومواضع عبادة وصلاة...وهكذا اتجه حسان بن ثابت بالمطلع المتوارث للقصيدة اتجاهاً جديداً لا يتصل بالنمط القديم إلا من حيث إنه نوع من الموازنة بين موقفين.

واقترنت وقفة حسان بالبكاء على الرسول ﷺ وعهده، فقد ذرف في تلك الدار الدموع باكياً الرسول ﷺ وساعدته عيون وجفون، وحق لها أن تساعد وتسعف بذلك لأنها تتذكر نعم الرسول وأفضاله عليها فتبكي بحرقة، وإنه لقاصر عن إحصاء تلك النعم ونفسه تتبلد وتضعف عن ذكرها. وإن نفسه مصابة بفجيعة فقد أحمد (محمد ﷺ) وهي تعدد آلاءه وأفضاله بمرارة وألم ولكنها لا تبلغ في تعدادها عشر كل فضل له، ويبقى لها ما هو كفيل بإثارة حزنها ووجدها.

ومن المفارقات أن حزنه وبكاءه يسعد العين، فكأن العين حين تبكي تؤدي وظيفتها وتحقق ذاتها، فنراه قد أطال الوقوف على القبر الذ يضم جسد أحمد ﷺ والعين تذرف من الدمع ما يواتيها.

ومما يلفت نظرنا دعاء حسان بن ثابت للقبر الذي فيه أحمد وللبلاد التي ثوى فيها الرشيد المسدَّد كناية عن الرسول الكريم كما نراه يدعو للحد الذي ضم الجسد والطيب وقد رفع عليه بناء من حجر عريض منظم بعضه فوق لبعض لقد كانت تلقى التراب عليه أيد، وتذرف الدموع عليه أعين، بينما كانت سعود وآمال تغيب بغيابه.

كما نجد حسان لا ينسى أن يقرن الجسد المسجى بما كان يمثله من صفات فيقول:

لقد غيَّبوا حِلْمًا وعلْمًا ورَحْمَةً عَشِيَّةَ عَلَّوهُ الثَّرى لا يُوَسَّدُ

فهو يقول لقد غيبوا بدفنه حلمًا وعلمًا ورحمة حين وضعوا فوقه التراب وذهبوا - بدون نبيهم -يمزقهم الحزن، وتقصم الفاجعة ظهورهم وأعضادهم(١).

ثم نرى حسان بن ثابت يعبر عن أثر فراق النبي ﷺ بعد دفن جسده الشريف ويبين أنهم يبكون من بكت السموات عليه، ومن بكته الأرض، وكل واحد من الناس قد أصيب بفقده بالحزن والكمد، فهل بلغت فاجعة يوماً في عظمها فاجعة اليوم الذى مات فيه محمد ﷺ؟! لقد انقطع منذ ذلك اليوم نزول الوحي، وقد كان نوره يعم كل مكان، فقد كان النبي يرشد المقتدين به والمستجيبين لدعوته إلى طريق الله، وينقذ الضال من ضلاله ويقوده إلى الهدى.

لقد استطاع حسان بن ثابت أن يتخذ من مراثيه للنبي معرضاً يعرض فيه أخلاق الرسول، وصفاته الكريمة على أنصع ما تعرض عليه الأخلاق حين يطويها الفناء فلا يبقى إلا ذكرها، ولا يأرج إلا عطرها. فنراه يضمن حديثه قدماً للرسول ورثاء له فمن تلك صفاته يستحق البكاء والحزن، فقد كان ذا نور وهو إمام يهديهم إلى الحق بكل ما أوتي من قوة، ومعلم صادق أمين يسعى لإسعاد من يقتدي به ويهتدي بهديه، يعفو عن الزلات ويقبل أعذارهم، ويبشرهم بإحسان الله إن فعلوا الخير، عنده تيسير ما يتشدد فإذا نزلت بهم شدة لا يستطيعون حملها، كان هو المبدّد لها والمسهل لمصاعبها فبينما هم في نعمة من الله بوجود الرسول دليلاً يقودهم للحق ويهديهم إلى النهج الصحيح الواضح عزيز عليه أن يحيدوا عن طريق الحق حريص أشد الحرص على أن يسيروا في طريق الهدى عطوف لا يميل عن شمولهم بجنانه، وإصلاح أمورهم، وقبول أعذارهم، فبينما هم في ذلك الجو من النور والنعيم والرحمة في ظل الرسول إذا بسهم الموت يصيب نورهم الذي كانوا يعيشون فيه، فإذا بلغ حسان بن ثابت هذا المبلغ من وصف النبي، ومضى إلى وصف وحشة البلاد بفقده، وانقطاع الوحي الذي كان ينزل عليه فيؤنس الأرض. ويصف حسان هذه البقاع الموحشة الكئيبة لفقد الرسول ﷺ، إلا بقعة معمورة اللحد، ضافها فقيد

(١) البداية والنهاية للحافظ بن كثير، ج٥، ص ٢٨٠، ٢٨١ الطبعة الثانية ١٩٧٧م، مكتبة المعارف، بيروت.

الإسلام الكريم، هي البقعة التي ضمت جسده الطاهر فهي روضة آنسة بضيافة الرسول ﷺ.

ويقوده هذا الوصف الموحش البقاع إلى البكاء ثانية، فستنزف دموع عينيه قطرة قطرة، ويظل حسان يبكي ويستنزف الدمع عينيه، فإذا ما أعقبه انحدار الدمع راحة، أو شفى شجى بلابله، عاد إلى وصف الرسول بأنه فقيد لا مثيل له، ولن يكون له نظير حتى يوم القيامة، فهو أعف ولن يجد العالم مثل محمد في عفته ووفائه وحفظه للعهد، وبكرمه الذي لا يعكره بالمن على من يشمله به إنه يبذل ما لديه من مال قديم ومن جديد بينما يضن غيره بما يختزنه ويتمنع عن البذل، ومحمد أكّرم الناس في ذكره وفي حسبه وفي نسبه إلى جده المنسوب إلى بطحاء مكة وهو عبد المطلب سيد قريش وبيته من أرفع البيوت، وهو قائم على أسس ثابتة من المجد والعلى، وهو كريم في المنبت وفي الفروع، وهو كالعود من شجرة كريمة سقاه الغيث فعاد غضاً أغيد يانعاً.

لقد أشرف على تنشئته منذ كان وليدًا الربُّ المعظم، فنشأ على أكرم الخيرات والخصال وعهد الله إليه بالوصايا على المسلمين، وزوده بالعلم والرأي الراجح، البعيد عن الفساد والزلل.

ثم يختم حسان قصيدته بقوله: إنني أقول ما قلت، ولا أحد من يعيب قولي وينكره إلا أن كان غائب العقل بعيداً عن طريق الحق والصواب.

كما أنه ليس بمائل عن حبه ومتوقف عن الإشادة بعظمته وفضله ماحياً، ولعله بذلك يدخل جنة الخلد فيكون بجواره وهذا ما يسعى له ويجهد نفسه من أجل ذلك.

ثم يعبر حسان بن ثابت في مرثية أخرى عن جزعه الشديد وحسرته ولوعته لوفاة المهدي. ويصف الشاعر حاله بعد رحيل رسول الله ﷺ، كيف أصبح تائهاً لا يعرف أن يقيم. ويتمنى أن يسارع الموت إليه ليلتحق بصاحبه في جنات الخلد فنراه يقول في مرثيته معبراً عن فرط جزعه:

مـا بـالُ عَـيْني لا تَنَـامُ كأَنَّمـا ... كُحِلَـتْ مآقيهـا بِكُحْلـي الأَرمـدِ[1]

جزَعـاً علـى المهْـدِيِّ أَصْـبَحَ ثاوِيـاً ... يـا خـيرَ مـن وَطِـئَ الحصـا لا تَبْعُـدِ

(١) المآقي: مجاري الدموع من العين الواحد مأقى. والأرمد: الذي يشتكى وجع العين.

جَنْبِي يَقِيكَ التُّرب لَهْفِي لَيْتَنِي ... غُيِّبتَ قَبْلَكَ فِي بَقِيعِ الفَرْقَدِ[1]
أَأُقِيمُ بعدَكَ في المدينَةِ بَيْنَهُمْ ... يَالَهْفَ نَفْسِي لَيْتَنِي لَمْ أُولَدِ
بِأَبِي وأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ ... في يوم الاثْنَيْنِ النَّبِيِّ المُهْتَدِي
فَظَلَلْتُ بعد وفاته متَلَدِّدًا ... يا ليتني صُبِّحْتُ سُمَّ الأَسْوَدِ[2]

وبعد أن يثوب الشاعر قليلاً إلى رشده يجد أن لا لقاء مع رسول الله إلا في الدار الآخرة فياليتها تدنو ليتم اللقاء بأكرم خلق الله، كما يضرع إلى الله أن يجمعه به في الفردوس فيقول:

أوحَلَّ أمر اللهِ فينا عَاجلاً ... في رَوْحَهِ من يَوْمِنَا أَوفى غَدِ
فنقُومُ ساعَتَنَا فنلقى طَيِّبًا ... مَحْضًا ضَرَائِبُه كريمَ المحْتَدِ[3]
يا بكْرَ آمنةَ المُبَارَكِ ذكْرُهُ ... ولدته مُحْصنةٌ يسَعْدِ الأَسْعُدِ
نُورُ أَضَاءَ على البَرِيَّةِ كُلِّهَا ... مَنْ يُهْدَ للنُّورِ المُبَارَكِ يَهْتَدِ
يا رَبِّ فاجْمَعْنَا مَعًا ونبيَّنا ... في جَنَّةٍ تبنى عُيونَ الحُسَّدِ[4]
في جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ واكْتُبْهَا لنا ... يا ذَا الجَلاَلِ وذَا الفلاَ والسُّؤدُدِ

ولم يكن حسان وهو يرثي رسول الإسلام معبراً عن نفسه وحده، أو عن المسلمين بصفة عامة، ولكنه صور مصيبة الأنصار في النبي أدق تصوير، فهو يصور لنا إحساسه العميق بفداحة المصيبة التي حلت به وبالمسلمين، وبخاصة الأنصار، حتى لقد خشى على مصير الأنصار بعد وفاته عليه السلام. ولم يكن شاعرنا في هذا إلا معبراً عن شعور قومه، فهو أنصاري، بل هو من السابقين منهم إلى الإسلام. وتمنى حسان بن ثابت ألا يعيش بعد وفاة الرسول راجياً أن توافيه المنية حتى يلتقي برسول الله ﷺ في جنة الخلد. وما أصدقه وهو يقول في هذا المعرض:

والله أَسْمَعُ ما بَقِيتُ بِهَالِكٍ ... إِلاَّ بَكَيْتُ على النبيِّ مُحَمَّدِ[5]
ضَاقَتْ بالأنْصار البِلاَدُ فَأَصْبَحُوا ... سُودًا وُجُوهُهُمُ كَلُونِ الإِثْمِدِ

(١) بقيع الفرقد: مقبرة أهل المدينة.
(٢) متلدد: متحير. صبحت: سقيت صباحا. والأسود: ضرب من الحيات.
(٣) الضرائب: الطبائع. والمحتد: الأصل.
(٤) تبنى: تصرف وتدفع.
(٥) والله اسمع: أي والله لا أسمع.

وَلَقَـــدْ وَلَـــدْنَاهُ وفينَـــا قَبْـــرُهُ وفُضُـــلُ نِعْمَتِـــه بنَـــا لم يُحْجَـــدِ[1]

فقد مضى حسان بن ثابت في تصوير فجيعة الأنصار برسول الله، لقد أبوا عليه حين فتح مكة أن يغادرهم ويقيم بين قومه فيها، أما الآن فلا حيلة لهم، فقد ضاقت بهم الآفاق، واربدَّتَ الوجوه حزناً كظيماً على رسول الله.

ثم يبتهل قلب الشاعر إلى الله، فيتجاوب مع ابتهال الملائكة، وضراعة الأخير أن يكلأ الله الرسول برعايته وأن يحظيه مقامه ويصور ذلك بقوله:

صـــلى الإلّـــه ومَـــنْ يُطيـــف بِعَرْشـــه والطَّيِّبـــون علـــى المبَـــارَكِ أَحْمَـــدِ
فَرحَـــتْ نَصـــارى يثْـــرَبٍ ويهودِهَـــا لمَّـــا تـــوارى في الضَّـــرِيح المُلْحِـــدِ[2]

يؤكد حسان في هذه المرثية على جزعه بالمصاب الجلل ورغبته الصادقة في أن يكون قد مات قبل النبي ﷺ حتى لا يصل إلى ما وصل إليه من حسرة وأسى. فهو لا يعرف ماذا يفعل بعد ذلك ويذكر يوم وفاته ﷺ وشهدت وفاته يوم الاثنين ويشيد بالصفات النبيلة من جديد فيذكر منها النور والهداية ويتمنى أن يجمعه الله سبحانه بصاحبه يوم القيامة في الجنة التى وعده بها.

وما أكثر تفجع حسان بن ثابت وهو يرثي النبي ﷺ بهذه المقطوعة التي مطلعها:

نَـــبِّ المســـاكين أَنَّ الخَيْـــر فَـــارَقَهُمْ مَـــعَ الرَّسُـــولِ تَـــوَلَّى مِـــنْهُمُ سـحَرَا[3]

(١) الإثمد: كحل أسود يكتحل به، ولدنه: يشير إلى أن بني النجار أخوال النبي عليه الصلاة والسلام من قبل آبائه.

(٢) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفى حسنين، ص ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠. وكذا شعراء حول الرسول، عبد الله بن محمد أبو داهش، ص ٣٢، ٣٣. وكذا السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، ج٤، ص ٦٦٩، ٦٧٠. وكذا الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدي، ج٢، ص ٩١، ٩٢. وكذا ذهول العقول بوفاة الرسول ﷺ لابي تراب الظاهري، ص . وكذا من شعراء الإسلام محمد بن سعد بن حسين، ص ١٨ وما بعدها، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. وكذا تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون، ص ٣٢٥، ٣٢٦. وكذا أدب غزوات الرسول أخبارها وأشعارها موفق فوزي الجبر، ص ٢٠٢، ٢٠٤. وكذا مختارات شعرية قام بجمعها وضبطها وشرحها بدر بن عبد الله الناصر، ص ١٤٢ وما بعدها، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م. وكذا محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، ص ٣٥٦. وكذا شعر عصر صدر الإسلام من منظور التطور الإسلامي محمد عادل الهاشمي، ص ٤٨ وما بعدها. وكذا الحركة الأدبية في المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين سليمان بن عبد الرحمن الزهير، ص ١٥٤.

(٣) نب: نبئ وأعلم، سهله، ثم عامله معاملة المعتل.

لقد ذرف حسان الدموع الغزار وبكى الرسول القائد، كما بكى الرسول الذي كان كهفاً للأيتام وملاذاً للبائسين.

وفي هذه المقطوعة يعدد حسان مناقب الرسول ﷺ وينوه بما كان يلقاه من جوده وبرّه ويشيد بحلمه وعفوه فيقول:

من ذا الذي عنده رَحْلِي ورَاحلَتي ... ورزقُ أهْلِي إذا لم يُؤنِسُوا المطرا[1]
ذاك الذي ليس تَخْشَاه مَجَالِسُه ... إذا الجليس سَطَأ في القول أو عثرا
كان الضِّياءَ وكان النورَ نَتْبَعُهُ ... وكان بعد الإله السَّمْعَ والبَصَرَا

ويبلغ الأسى بحسان مبلغاً يجعله يتمنى لو أن الله قضى على الخلق جميعاً بالفناء والهلاك بعد وفاة رسول الله، ويصور ما أصاب بني النجار من الذل بعده فيقول:

فليتنا يوم وارُوهُ بِمَحْنَيَةٍ ... وغيَّبُوه وأَلْقَوْا فَوْقَهُ المَدَرا
لم يترك اللهُ خَلْقاً من بَرِيَّةٍ ... ولم يَعِشْ بعدَه أُنْثَى ولا ذَكَرا[2]

لقد أصبحت الحياة بعد رسول الله ﷺ لا قيمة لها في نظر حسان بن ثابت لأنه كان الضياء لتلك الحياة. وإن رحيل النبي ﷺ كارثة للمساكين الذين نعموا بخيره وعطفه، وكانت الكارثة أكبر على بني النجار الذين افتقدوا مكانتهم برحيله عليه الصلاة والسلام.

ورثاء حسان للرسول بهذه الكيفية والكمية يشير إلى شدة التعلق بالرسول ﷺ، تعلقاً بأخلاقه المثلى، وصفاته العليا.

وكان الرسول يعطي حسان، وهو الذي يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

كما كان عطوفاً عليه وعلى المسلمين، وحليماً إذا أخطأ أحد أصحابه، وكان بصيراً بمعاملتهم، لكل شخص أسلوب في الملاطفة، وهكذا ما جعل حسان يصور شعور أي مسلم في رثائه وتأمله هذه المقطوعة في حرارتها وصدقها.

---

(١) لم يؤنسوا المطر: لم يحسوه.

(٢) ديوان حسان بن ثابتتحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٢١٠. وكذا السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ج٤، ص ٦٧٠، ٦٧١. وكذا حسان بن ثابت حياته وشعره إحسان النص، ص ١٩٣، ١٩٤. وكذا الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدي، ج٢، ص ٩٢. وكذا ذهول العقول بوفاة الرسول ﷺ أضمامة ذهول العقول فيما رثى به الرسول ﷺ لأبى تراب الظاهري، ص. وكذا تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون، ص ٣٢٦، المجمع العلمي العربي الإسلامي منشورات محمدالراية دار الفكر بيروت – لبنان.

ويتابع حسان بن ثابت التذكير بالصفات العظيمة التي اتصف بها نبينا محمد ﷺ، فيذكر بره ووفاءه وعدله وصدقه وبذله المعروف ويضفي حسان على الرسول عليه السلام المناقب التي تليق بالنبوة والرسالة فهو الذي يعطف على المساكين والمرملين، ويأخذ بيد المستضعفين، وهو العف اللسان، الصادق القول، الواسع الحلم، وهو النور الذي يهتدي به الناس والضياء الذي يستضيئون به، كما يتحدث حسان أيضاً في هذه المرثية عن نساء النبي ﷺ وما أصابهن من حزن وبؤس بعد انتقاله إلى جوار ربه على نحو ما نجد في قوله:

آليتُ حَلْفَةَ بَرٍّ غيرِ ذِي دَخَلٍ ... مِنِّي أَلِيَّةَ بَرٍّ غَيْرِ إفْنَادِ[1]
باللهِ ما حَمِلتْ أُنْثَى وَلا وَضَعَتْ ... مِثلَ النَّبيِّ رَسُولِ الرَّحْمَةِ الهَادِي
ولامَشَى فوق ظَهْرِ الأرض من أَحدٍ ... أَوفي بِذمَّةِ جَارٍ أو بميعَادِ
مِنَ الذي كان نُوراً يُسْتَضَاءُ به ... مُبَارَكُ الأَمْرِ ذَا حَزْمٍ وإرْشَادِ
مُصَدِّقاً للنَّبِيِّين الأُلَي سَلَفُوا ... وأَبْذَلَ النَّاسِ للمَعْروفِ للجادي[2]

ورثاء حسان بن ثابت للرسول في هذه القصيدة يجمع بين شعر العاطفة الخاصة التي تعبر عن شعوره الشخصي وانفعاله الذاتي، وبين شعر الرثاء العام الذي يعبر فيه الشاعر عن عظيم المصيبة في المرثي وخسارة الناس بفقده، وحيرة أمرهم من بعده، فبينما نراه يقول ذلك إذا به يقول في القصيدة نفسها عن نفسه واصفاً وحدته وتفرده بعد موت النبي، ويلح حسان في مراثيه لرسول الله على ما كان يلقاه من بر النبي الكريم وعطفه فيقول:

خَيْرَ البَرِيَّةِ إنِّي كنتُ في نهرٍ ... جَارٍ فأصبحتُ مثلَ المُفْرِدِ الصَّادِي[3]

كما يندب حسان بن ثابت الواقع الذي بدأ يعيشه بعد النبي ﷺ، إذ كان قبل الوفاة ينعم بالخير العميم وفجأة انقطع كل شئ. ولقد آلم حسان أن يرى نساء الرسول ﷺ، في حالة البؤس التي ألمت بهن بعد رحيله فيقول:

أمسى نِساؤكَ عَطَّلْنَ البُيُوتَ فَمَا ... تَضْرِبْن فَوقَ عُرى سِتْرٍ بأَوْتَادِ

(١) آليت: أقسمت، والألية: القسم. أفناد: مع فند وهو الكذب.
(٢) الجادي: الذي يجتدي غيره، يطلب ما عنده.
(٣) الصادي: الظمآن.

مِثْـلِ الرَّواهِـبِ يَلْبَسْـنَ المُسـوح وقـدْ أَيْقَـنَّ بِـالبُؤْسِ بَعْـدَ النَّعْمَـةَ البـادِي[1]

وكـأن وفـاة رسـول الله ﷺ كانـت العاصـفة المزلزلـة التـي هبـت علـى شـاعريته لتطفئها، فلا تجد لـه بعد وفاة رسول الله ﷺ وسلم شيئاً مهماً، عدا مارثاً بـه عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، ومدح بن الزبير عليهم رضوان الله.

وفي مرثية أخرى يخاطب حسان بن ثابت عينيه ويحثهما على أن تجودا بالدمع ويرجو ألا ينقطع ذلك الدمع فالمصيبة كبيرة برحيل رسول الله ﷺ صاحب الصفات والخصال الكريمة التي يعددها الشاعر في هذه الأبيات فيقول:

يَـا عَـيْنِ جُـودِي بـدمْعٍ مِنْـكِ إسْـبالِ ولا تَمَلِّـنَّ مِـن سَـحِ وإعْـوَال
لا تعـدِمَانِي بعـد اليَـومِ دَمعَكُمـا إنِّـي مُصَـابٌ وإنِّـي لَسْـتُ بالسَّـالي
لكـنْ أَفيضَـا علـى صـدْري بأرْبَعَـةٍ إنَّ الجَـوَانِحَ مِنهَـا هَـاجِسُ صَـالِي
علـى رسـولِ لِنـا مَحْـض مآرِبُـهُ سمـعِ الخَلِيقَـةِ عـفٌ غـير مجْهَـالِ
حـامِي الحَقِيقَـةِ نَسَّـالِ الوديقـة فَكَّـا كِ العُنَـاةِ كـريم مَاجِـدٍ عَـالِ
كَسَّـابِ مَكْرمـةٍ مِطْعَـأمِ مَسْـغَبَةٍ وهَّـابِ عانِيَـةٍ جَفَـاءَ شِـمْلالِ
عَـفٌ مَكَاسِـبُهُ جَـزْلٍ مَوَاهِبُـهُ خَيْـرِ البَرِيَّـةِ سمـحٍ غَـيرَ نِكّـالِ
وَارِى الزِّنَـادِ وقـوَّادِ الجِيَـادِ إلىَ يَـوْمِ الطِّـرَادِ إذَا شُـبَّت بأَجْـذَالِ
ولاَ أُزَكِّـي علـى الـرَّحْمنِ ذَا بَشـرٍ لكـنَّ عِلْمَـكَ عنـدَ الوَاحِـدِ العَـالي
إنـيِّ أَرى الـدَّهْرَ والأَيَّـامُ تَفْجَعُنِـي بالصَّـالِحين وأَبقـى نَـاعِمَ البَـالِ
يـا عـين فـأبكي رَسُـولَ الله إذ ذُكـرت ذاتُ الإلـهِ فَـنِعْمَ القَـائم الـوَالي[2]

(١) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٢٠٧، ٢٠٨. وكذا الطبقات الكبرى محمد بعد سعد، ج٢، ص٩١. وكذا ذهول العقول بوفاة الرسول ﷺ إضمامة ذهول العقول فيما رثى به الرسول ﷺ لأبي تراب الظاهري ص و. وكذا حسان بن ثابت الأنصاري شاعر النبوة والإسلام رحاب عكاوي، ص ٩٠. وكذا أدب غزوات الرسول أخبارها وأشعارها موفق فوزي الجبر، ص ٢٠٤، ٢٠٥. وكذا حسان بن ثابت حياته وشعره إحسان النص، ص ١٩٤. وكذا نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ج١٨، ص ٤٠٢.

(٢) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٢١١. وكذا الطبقات الكبرى محمد بن سعد، ج٢، ص ٩٢. وكذا الشعر المنحول قضايا ونصوص فضل بن عمار العماري، ص ٢٤٢، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، مكتبة التوبة – الرياض – المملكة العربية السعودية. وكذا محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، ص ٣٥٦، ٣٥٧.

وقال حسان بن ثابت في رثاء رسول الله ﷺ:

كُنْـــتَ السَّـــوَادَ لِنَـــاظِرِي فَعَمِـــي عَلَيـــكَ النَّـــاظِرُ
مَـــن شَـــاءَ بَعْـــدَكَ فَلْيَمُـــتْ فَعَلَيْـــكَ كُنْـــتُ أُحَـــاذِرُ[1]

أما كعب بن مالك[2] الأنصاري شاعر رسول الله ﷺ وهو في طليعة شعراء العصر الإسلامي الذين حملوا عبء الدفاع بشعرهم عن الإسلام، والذود عن حماه، ورد سهام أعدائه إلى نحورهم، في تلك المعركة العنيفة التي احتدم أوارها بين شعراء الكفر والإيمان فشعره من هذه الناحية يمثل مرحلة جديدة في الشعر العربي من حيث الشكل والمضمون.

ومن ناحية ثانية عبر في شعره عن أسس المعاني الإنسانية التي جاء بها الإسلام، وصور المجتمع المسلم في أزهى عصوره التاريخية وقد رأيناه ضليعاً في دفاعه عن الدعوة الإسلامية، فأكثر من الإشادة بمآثرها وأمجادها مجلياً فى امتداح النبي ﷺ ومما لا شك فيه أن المصيبة التي حلت به بوفاة رسول الله ﷺ قد عقدت لسانه، وأجدبت شاعريته لذلك قل رثاؤه للنبي، ومن الواضح أن المسلك الذي اتبعه كعب في رثائه هو نقل ما كان يقوله في المديح، من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، فهو يعدد خصال المرثى، ويسجل مناقبه، ولكنه أخضع رثاءه كما أخضع فنونه الأخرى إلى المقاييس الإسلامية، فقد تحدث بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية، فيها المجد والتقوى والإسلام، وفيها الخير والبر والوفاء، وبهذه المآثر والمناقب الجديدة، كانت فاجعة الإسلام والمسلمين عند فقد رسول الله ﷺ، ولفقد هذه المآثر والمناقب كان يلح كعب على عينيه أن تبكيا رسول الله ﷺ بدمع منهمر فيقول:

(١) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٣٨٣. وكذات ذهول العقول بوفاة الرسول ﷺ لأبي تراب الظاهري، ص ط.

(٢) كعب بن مالك بن أبي كعب بن القيس بن كعب بن سواد واسم أبي كعب عمرو ويكنى أبا عبد الله هو أحد شعراء رسول الله ﷺ الذين كانوا يردون عنه الأذى وكان شاعراً محموداً مطبوعاً توفى فى خلافة معاوية أنظر الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، موفق الدين عبد الله بن قدامة القدسي، ص ١٦٠، ١٦١. وكذا من شعراء الإسلام، محمد بن سعد بن حسين، ص ٢٥. وكذا الموسوعة العربية الميسرة بأشراف محمد شفيق غربال المجلد الثاني، ص ١٤٦٥، دار إحياء= =التراث العربي. وكذا تذهيب تهذيب الكمال في اسماء الرجال للحافظ صفيالدين أحمد بن عبد الله الخرجي الأنصاري، ص ٣٢١. وكذا موسوعة الشعر العربي، مطاع الصفدي – إيليا حاوي أشرف عليها خيل حاوي حققها أحمد قدامة، المجلد الخامس، ص ٩٩. وكذات الشعر في موكب الدعوة، صادق عبد الحليم محمد، ص ٨٧.

يـــا عـــينُ بكـــى بـــدمعٍ ذري ... لخيْـــرِ البريَـــةِ والمصـــطفى
وَبَكَـــى الرســـولُ وحَـــقّ البُكـــا ... عليـه لـدى الحـربِ عنـدَ اللِّقَـا
علـــى خـــيرِ مـــا حملـــتْ ناقـــةٌ ... وأتقـــى البرِيّـــةِ عنـــد التُّقـــىَ
علـــى ســـيَّد ماجـــدٍ جحفـــلٍ ... وخـــير الأَنَـــامِ وخـــيرِ اللـــها
لـــه حَسَـــبٌ فـــوقَ كـــلِّ الأنـــا ... م مـــن هاشـــمٍ ذلـــك المرتجـــى
نَخُـــصٌّ بمـــا كـــان مـــن فضـــلِهِ ... وكـــان سِـــرَاجًا لنـــا في الـــدُّجَى
وكـــان بشـــيراً لنـــا مُنْـــذرا ... ونـــوراً لنـــا ضـــوءه قـــد أضـــا
فأنْقـــــذنَا اللهُ في نـــــوره ... ونَجّـــى برحمتِـــه مَـــنْ لَظَـــى[1]

ففي هذه المرثية حاول كعب بن مالك أن يغلب حالة الجزع التي ألمت به بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستدعى دموع عينيه ليخفف بها شدة الحزن، وقسوة الموقف.

فقد كان رسول الله ﷺ خير البرية وأتقاها أنقذ الشاعر وقومه من نار محرقة بما حمله من بشائر النور والهداية.

وواضح في البيتين الأخيرين مدى تأثر كعب بالقيم الإسلامية ففيهما يتجلي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً**﴾[2].

ومن الملاحظ أن تعديد الخصال وتسجيل المناقب، هو السبيل الذي سلكه كعب في أغلب رثائه، سواء لرسول الله ﷺ أولسواه.

وإضافة إلى تعديد خصال الميت، وتسجيل مناقبه، كان يظهر أثر فقد المرثي في الناس والمجتمع، فعندما فقد الرسول ﷺ لم يكتف كعب بنعيه إلى أصحابه، أو إلى العرب والمسلمين فقط، بل تعدّاهم إلى جميع العالمين، حتى أشرك الجن في هذا النعي. وفقد الرسول ليس بالهين، فذلك يعني انقطاع الوحي الذي كان يهبط عليه في حياته، وما

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري تحقيق سامي مكي العاني، ص ١٧٢، نشر مكتبة النهضة بغداد، ١٣٨٦هـ. وكذا الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدي، ج٢، ص ٩٢، ٩٣. وكذا شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، يحيى الجبوري، ص ٣٠٤، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م، مؤسسة الرسالة – بيروت.
(٢) سورة الأحزاب، ا لآية: ٤٥، ٤٦.

دام محمد عليه السلام قد انتقل إلى الرفيق الأعلى فلا أمل بعد اليوم في هذا النور الذي كان يعم الكون، ويشمل العالمين فقال كعب بن مالك يبين هذه المعاني خلال المرثية الآتية:

ألا أنعي النبي إلى العالمينا	جميعاً ولا سيما المسلمينا
ألا أنعي النبي إلى أصحابه	وأصحاب أصحابه التابعينا
ألا أنعي النبي إلى من هدى	من الجن ليلة إذا تسمعونا
لفقد النبي إمام الهدى	وفقد الملائكة المنزلينا[1]

وكثيراً ما كان كعب بن مالك يشرك العوالم الطبيعية المصاب، فتحسس وتتألم.

أما الذين رثاهم في شعره، فكان على رأسهم الرسول ﷺ، وقد وصل إلينا منه ثلاث مقطعات لم يزد مجموع أبياتها على سبعة شعر بيتاً، وفي أغلب الظن أن تكون هذه المقطوعات من قصائد لم يصل إلينا منها سوى هذه الأبيات.

وفي مرثية أخرى يخاطب كعب بن مالك عينيه ويطلب منها أن تتجداه بالدمع، فيقول:

وبَاكِيَةٍ حَرَّاء تَحْزَنُ بِالبُكَا	وتَلْطِمُ منْها خُدَّها والمقلِّدا
على هالِكِ بعدَ النَّبِّي مُحَمَّدَ	وَلَوْ عَلِمَتْ لم تَبْكِ إلا مُحَمَّدًا
فُجعْنا بخَيْرِ النَّاس حَيّاً ومَيّتاً	وأدْنَاه مِنْ رَبِّ البَرِيَّةِ مَعَقِدا
وأَفْظَعِهِم فَقْداً على كُلِّ مُسْلِمٍ	وأعْظمِهِمْ في النَّاسِ كُلّهمُ يَدا
لَقَدْ ورِثَتْ أخْلاقُه المجد والتُّقى	فلمْ تَلقَهُ إلا رَشيداً ومُرْشِدا[2]

ولكننا نجد بعض الباحثين يقول: إن أكثر ما رثي به الرسول رثاء جاهلي في الحسرة والجزع، وإن أثر الدين فيه غير واضح[3]، وهذا كلام يعوزه الدليل كيف وقد بكى المسلمون في الرسول الوحي والقرآن والهداية والتعليم والعدل وحسن المعاملة، وأدركوا أن

(١) كعب بن مالك الأنصاري شاعر العقيدة الإسلامية، سامي مكي العاني، ص ١١٠، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، دار القلم – دمشق. وكذا الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، محمد عبد المنعم خفاجي، ص ١٨٠. وكذا الحياة الأدبية في عصر صدر محمد عبد المنعم خفاجي، ص ١٨٠، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان.

(٢) ديوان كعب بن مالك، سامي مكي العاني، ص ١٩٨.

(٣) كما ظن ذلك يحيى الجبوري في كتابه شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص ٣٠٥.

موت الأنبياء حقيقة وأنه لا داعي للجزع بعدها، وأما اللهفة والجزع فواردتان فيه، وهل كان موت النبي ﷺ غير جدير باللهفة والجزع به وقد كاد الإسلام أن ينقض يوم قضى، وقد يطول الحديث في توضيح قوة النفس الإسلامي في رثاء الرسول ﷺ.

وإذا حاولنا رؤية الرثاء الإسلامي وخصائصه العامة فنحن واجدوها فيما عرض لنا من فقرات، ونزيد عليها ما يلي:

وأول ذلك أن الجاهليين كانوا يدعون للميت بالسقايا، ويستمطرون الديم على الأحداث أما الشعراء الإسلاميون كما رأينا فيدعون للميت بالرحمة، ويستمطرون المغفرة كما في قول فاطمة بنت المصطفى ﷺ:

يا خاتَم الرُّسُلِ المبارك صِنْوُه صَلّى عَلَيْك منزلُ الفُرْقَانِ[1]

وقول أروى بنت عبد المطلب بن هاشم:

أفاطَم صلى اللهُ ربَّ مُحَمَّد على جَدَث أَمْسَى بيَثْرِب ثَاوِيا!
عَلَيْكَ من اللهِ السَّلامُ تَحيَّة وَأَدخلت جَنَّات من العدنِ راضيا![2]

وقد كان الشاعر الجاهلي حين يرثي يستنزل الكواكب ويشتم الدهر، ويلعن الحياة والأحياء ويرسل غضبه القاصف على القدر العاصف بما يحب ومن يود، وكأن الأيام تعي ما يقول وكأن الله جل وعلا - سلبه ما هو له، ولكن الشاعر المسلم عرف أن الموت مورد لابد منه فسلم الأمر للبارئ، ورضى بالقدر خيره وشره بل سلك أكثر من الرضا، إذ يعزي نفسه، ويضرب لها الأمثال بمن فات ومات، كما في قول عبد الله بن أنس[3] يوم قضى النبي ﷺ:

تَطَاولَ ليْلي واعترتني القَوَارِعُ وخَطْبٌ جليل للبليّة جامعُ

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري، ج١٨، ص٤٠٤. وكذا الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرءوف سعد ج٧ ص ٥٩٤.

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدي، ج٢، ص ٩٣. وكذا أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحلة، ج١، ص ٣٤.

(٣) عبد الله بن أنيس الجهني ثم الأنصاري، شهد بدراً وأحداً وما بعدهما توفى سنة ٧٤هـ. أنظر أسد الغابة في معرفة الصحابة عز الدين أبي الحسن على بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير، ج٣، ص ٧٥.

غـداةَ نَعَـى النـاعي إلينـا محمـداً ... وتلـك الـتي تَسْـتَك منهـا المسَـامعُ
فلـو رَدَّ مَيْتًـا قتْـلُ نفسـي قتلتُهـا ... ولكنّـه لا يـدفَعُ المـوتَ دافـعُ
فآليـتُ لا آسـي علـى هُلْـك هالـكٍ ... مـن النـاس مـا أَوْفـى تَـبِيرٌ وقـارعُ
ولكـنَّني بـالٍ عليـه ومُتْبِـعٌ ... مُصِـيبتَهُ إنّـي إلى الله راجـعُ
وقـد قَـبَض الله النبـيَّين قَبلَـهُ ... وَعـادٌ أصـيب بـالرِّزي والتَبـايعُ[1]
فياليـتَ شِـعْري مـن يقـوم بأمرنـا ... وهـل في قـريش مـن إمـام يُنـازِعُ
ثلاثًـةُ رهْـط مـن قـريش هُـمُ هُـمُ ... أزِمَّـةُ هـذا الأمـر والله صـانِعُ[2]
علـيٌّ أو الصِّـديقُ أو عُمَـرٌ لهـا ... ولـيس لهـا بعـد الثلاثـة رابـعُ
فـإن قـال مِنَّـا قائـلٌ غـير هـذه ... أَبَيْنـا وقلنـا الله راءٍ وسـامَعُ
فيـا لقُـريشٍ قَلِّـدوا الأمَـر بعضَـهم ... فـإنّ صـحيحَ القـول للنـاسِ نـافعُ
ولا تُبْطئـوا عنهـا فواقـاً فإنّهـا ... إذا قُطِعـت لم تُمْـن فيهـا المطـامعُ[3]

فقد شارك الشاعر عبد الله بن أنيس المسلمين أحزانهم بوفاة رسول الله ﷺ، ويبدو أن هذا الصحابي قد واجه نبأ الوفاة العظيم بنفس مؤمنة متصبرة، لا تستطيع أن تفعل شيئاً أمام قضاء الله وقدره. ويجد العزاء في أن الناس جميعاً سيلاقون هذا المصير كما أن الله سبحانه قد قبض النبيين جميعاً قبل رسول الله ﷺ، والمسلم حين يعزي نفسه ويصبر ليس في نفسه صبر الإنسان الذي عرف أن الماضي لا يعود فحسب، بل صبر من احتسب مصيبته عند الله وعرف أن الله يجزي الصابرين فهو يصف موته ﷺ بأنه "خطب جليل"، وأنه قد ترك في النفوس فوق ما تحتمل وأنه قد فجع الخلائق كلها وأبقى الناس في حيرة وقد استكت منهم المسامع غداة نعاه الناعون. ونراه يميل في آخرها إلى الخلافة وما اعترى المسلمين حيالها من الاضطراب، ويرشح ثلاثة - كلهم من قريش - لا

(١) التبابع: ملوك اليمن جمع تبع.
(٢) أزمة: جمع زمام.
(٣) فواق: من الزمن مقدار ما بين الحلبتين. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب أحمد بن عبد الوهاب النويري، ج١٨، ص ٤٠١. وكذا الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقد، ج٢، ص٩٠. وكذا الحركة الأدبية في المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين سليمان بن عبد الرحمن الزهير، ص ١٦١. وكذا الحماسة البصرية للبصري، ج١، ص١٩٥. وكذا الشعراء من أصحاب رسول الله ﷺ نايف بن هاشم الدعيسي البركاني، ص ١٦٣، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، مطابع الرشيد بالمدينة المنور.

يرى لهم رابعاً، لفضلهم ومكانتهم في الإسلام، أبا بكر وعلياً وعمر. ويدعوهم إلى المسارعة في حسم هذا الأمر لرد المطامع وسدا لطريق أمام الأهواء.

وقد كثر رثاء النبي ﷺ، وخلفت وفاته في قلب سواد بن قارب[1] حزناً عظيماً لا ينفع معه الفدية بالأموال أو الأولاد أو الأرواح ولو أن كل هذه الأمور ترجع الحياة إلى النبي ﷺ لبذلها سواد بن قارب فقال معبراً عن جزعه وحزنه وقلة حيلته:

حَلَّتْ مُصيبَتُكَ الغداةَ سوادُ ... وأرى المصيبةَ بعدِهَا تزدادُ
أبقى لنا فقدُ النبيِّ محمَّدٍ ... صلى الإلَهُ عليه ما يَعتَادُ
حُزْناً لعمرك في الفؤادِ مخامِراً ... أوهل لِمن فَقَدَ النبيِّ فؤادُ؟
كنا نَحلُ به جَناباً مُمْرَعاً ... جفَّ الجنَابُ فأَجْدَبِ الرُّوَادُ
فبكت عليهِ أرضُنا وسماؤُنا ... وتَصَدَّعت وَجْداً به الأكبادُ
قلَّ المتاع به وكان عيانه ... حلماً تضمن سكرتيه رقادُ
كان العيانُ هو الطريف وحزنُه ... باقٍ لعمرُك في الفؤاد بلادُ
إن النبيَّ وفاتُه كحياتِه ... الحقُّ حقٌّ والجهادُ جهادُ
لو قيل تفدون النبيَّ محمداً ... بُذِلَتْ له الأموالُ والأولادُ
وتسارعت فيه النفوسُ ببذلها ... هذا له الأغيابُ والأشهادُ
هذا وهذا لا يَرُدُّ نبيَّنا ... لو كان يفديه فداه سوادُ
إني أحاذر والحوادثُ جمةٌ ... أمراً لعاصِفِ ريحِهِ إرعادُ
إن حل منه ما يخاف فانتُهُوا ... للأرض إن جفت بناء أوتادُ
لو زاد قوم فوق منية صاحب ... زدتم ولَيس لمنيةٍ مُزدادُ[2]

(١) كان كاهناً في الجاهلية، وكان شاعراً، وصحابياً، وفد على النبي ﷺ زعم أنه أتاه رئيه وأخبره ببعث رسول الله مرات متتالية، وكان عمر بن الخطاب يحب أن يسمع قصة رئيه منه، وبعد أن أسلم عوضه الله قراءة الكتاب. أنظر حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، حجازي زاده على فهمي، ج١، ص ١٠٢، ١٠٣ سعات، روش، مطبعة سبي ١٣٢٤هـ/١٩٠٤م.

(٢) حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، زادة على فهيم، ج١، ص ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩. وكذا شعراء حول الرسول ﷺ، عبد الله بن محمد أبو داهش، ص ١٣٥، ١٣٦. وكذا شعر في رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ٦٣، ٦٤. وكذا الشعر الإسلامي في صدر الإسلام، عبد الله الحامد، ص ٢٣٤، ٢٣٥. وكذا شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين جمعه وحققه ووثقه وشرح غريبه وترجم لأعلامه ووضع فهارسه عبد الله بن حامد الحامد، ص ٤٢٨، ٤٢٩.

ومن الجدير بالذكر هنا أن تقف عند الفهم الرائع لدى سواد بن قارب لحادثة موته لرسول الله ﷺ، فهما يعتمد ثبات النفس والفهم لنواميس الكون، فموت النبي ﷺ شئ طبيعي، رغم الحب والتعظيم له، ورغم أهميته في كيان الأمة فإن شيئاً من الأمور لا يتغير بعده فالحق يبقى بعد وفاته كما كان قبلها حقاً لا يتغير والشريعة والأحكام لا تتبدل.

ويشهد أبو ذؤيب الهذلي[1] وفاة رسول الله ﷺ وندع الشاعر أبا ذؤيب يحدثنا بعباراته واصفاً موت النبي ﷺ ودفنه قائلاً: "بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل، فاستشعرت حزناً، وبتُّ بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها، ولا يطلع نورها، فظللت أقاسي طولها، حتى إذا كان قرب السحر أغفيت، فهتف بي هاتف وهو يقول:

خطب أجل أناخ بالإسلام ... بين النخيل ومعقد الآطام
قبض النبيُّ محمدٌ فعيوننا ... تُذْرِي الدُّموع عليه بالتَّسْجَامِ

قال أبو ذؤيب: فوثبت من نومي فزعاً، فنظرت إلى السماء فلم أر إلا سعد الذابح، فتفاءلت به ذبحاً يقع في العرب، وعلمت أن النبي ﷺ قد قبض، فركبت ناقتي وسرت، فلما أصبحت طلبت شيئاً أزجر به، فعن لي شيهم - يعني القنفذ - قد قبض على صلّ - يعني الحية - فهي تلتوي عليه، والشيهم يقضمها حتى أكلها، فزجرت ذلك، وقلت: شيهم شئ مهم والتواء الصل: التواء الناس عن الحق القائم بعد رسول الله ﷺ، ثم أولت أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعد رسول الله ﷺ على الأمر، فحنثت ناقتي، حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر، فأخبرني بوفاته، ونعب غراب سانح، فنطق بمثل ذلك، فتعوذت بالله من شر ما عنَّ لي في طريقي، وقدمت المدينة المنورة، ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا انطوى بالإحرام، فقلت: مَهْ؟ قالوا: قبض رسول الله ﷺ، فجئت إلى المسجد، فوجدته خاليا، فأتيت بيت رسول الله ﷺ، فأصبت بابه مُرْتجاً، وقيل: هو

(١) كان أبو ذؤيب أشعر هذيل وهو جاهلي إسلامي واسمه خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم أسلم ولم ير الرسول عليه الصلاة والسلام. أنظر ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن أحمد العباسي، حققه وعلق على حواشيه ووضع فهارسه محمد محيى الدين عبد الحميد، ج٢، ص ١٦٥. وكذا الاستيعاب في معرفة الأصحاب يوسف بن عبد الله بن عبد البر تحقيق على محمد البجاوي، ج٥، ص ١٠٢، القاهرة بدون تاريخ. وكذا تاريخ ابن عساكر: ابن عساكر، رتبة وصححه عبد القادر أفندى. وكذا الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، ج٥، ص ١٧٩، ١٨٠ – دمشق، مطبعة روضة دمشق، ١٣٢٩هـ. وانظر جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطى، تحقيق محمد خليل هراتش.

مُسجَّى، وقد خلا به أهله، فقلت: أين الناس؟ فقيل: في سقيفة بني ساعدة صاروا إلى الأنصار، فجئت إلى السقيفة، فوجدت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وسالماً وجماعة من قريش، ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة، وفيهم شعراؤهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وملأ منهم، فأويت إلى قريش، وتكلمت الأنصار، فأطالوا الخطاب وأكثروا الصواب، وتكلم أبو بكر، فلله درُّهُ من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخصام، والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا مال إليه وأنقاد له.

فشهدت الصلاة على سيدنا محمد ﷺ، وشهدت مدفنه ﷺ(١).

ثم أنشد أبو ذؤيب يبكي النبي ﷺ:

لما رأيت الناس في عسلانهم	من بين ملحود له ومُضَرَّحِ(٢)
متبادرين لشرجع بأكفهمْ	نص الرقاب لفقد أبيض أروح(٣)
فهناك صرتُ إلى الهموم ومَنْ يبتْ	جارَ الهموم ببيتُ غير مروحِ
كسفتْ لمصرعه النجومُ وبدرها	وتزعزعت آطامُ بطن الأبطحِ
وتزعزعت أجبالُ يثرب كلّها	وتخيلها لحلول خطبٍ مفدحِ(٤)
ولقد زجرتُ الطيرَ قبل وفاتهِ	بمُصابهِ، وزجرتُ سعد الأذبحِ(٥)

ويشهد أبو ذيب الهذلي وفاة رسول الله ﷺ ويشارك في دفن جسده الطاهر فيروعه هذا الموقف وتتملكه الأحزان والهموم ويرى النجوم والجبال والنخيل كلها حزينة أيضاً لرحيل المصطفى صلوات اله عليه وقد استطاع أن يجسد هذا الحزن من خلال هذه الأبيات.

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن أحمد العباسي، حققه وعلق على حواشيه وضع فهارسه محمد محي الدين عبد الحميد، ج٢، ص ١٦٥، ١٦٦.
(٢) الضرح: أن يؤخذ شئ ويوضع به.
(٣) الشرجع: السرير يحمل عليه الميت.
(٤) أجبال يثرب: أصناف الناس في يثرب كلها.
(٥) سعد الذابح: كوكبان متقاربان سمي أحدهما ذابحاً لأن معه كوكباً صغيراً غامضاً يكاد يلزق به فكأنه مكب عليه يذبحه والذابح أنور منه قليلاً وهو من منازل القمر. انظر الروض الأنف لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرؤوف سعد، ج٧، ص ٥٩٣. وكذا أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، نورة الشملان، ص ٤٩، ا لطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، الناشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، طبع في شركة الطباعة العربية السعودية العمارية، الرياض.

ويعبر عبد الله بن سلمة الهمذاني[1]، عن تأثره برحيل النبي ﷺ فيقول:

إنَّ فقْـدَ الـنبيِّ جزَّعنـا اليـو ... م فَدَتْـهُ الأسمـاعُ والأَبصـارُ
مـا أصـيبتْ بـه الغـداةَ قـريشُ لا ... ولا أفـردتْ بـه الأنصـارُ
فعليـه السـلام مـا هَبَّـتِ الـريحُ ... وقـدَّت جـنحَ الظَّـلام نـوارُ[2]

ويذكر مجفنة بن النعمان العتكي[3] حالة الحزن التي قرحت قلبه وأسالت دموع عينه تأثراً برحيل النبي ﷺ فيقول مخاطباً عمرو بن العاص:

يـا عمـرو إن كـان الـنبيُّ مُحَمَّـد ... قـد أَتـى بـه الأَمْـرُ الـذي لا يُـدْفَعُ
فقلُوبنـا قَرحـى ومـاءُ دموعِنـا ... جـارٍ وأعنـاقُ البريـةِ خُضَّـعُ
يـا عمـرو إن حياتـه كوفاتـه ... فينـا ونبصـرُ مـا يقـول ونسـمَعُ
فـأقِمْ فإنـك لا تخـاف رجوعنـا ... يـا عَمْـرُو ذاكَ هـو الأَعَـزَّ الأَمْنَـعُ[4]

ورثاه مران بن عمير بن أبي إمران الهمذاني[5] قائلاً:

إنَّ حُزْنـي علـى الرسـولِ طويـل ... ذاك مـني علـى الرسـول قليـلُ
قلـتُ والمـوتُ يـا أُمـامَ كريـهُ ... ليـتني مِـتُّ يـومَ مـاتَ الرَّسَـولُ
ليـتني لم أكـن بقيـت فُواقـاً ... بعـده والفـواقُ مـني طويـلُ
بَكـتِ الأَرَضُ والسـماءُ عليـه ... وبكـاه خليلـهُ جبريـلُ

(١) صحابي خرج في وفد همذان لما بلغهم وفاة النبي ﷺ فدخلوا على أبي بكر فقال عبد الله: يا معشر قريش، إنكم لم تصابوا بالنبي ﷺ دون سائر العرب لأنه لم يكن لأحد دون أحد، غير أنا معترفون للمهاجرين بفضل هجرتهم وللأنصار بفضل نصرتهم وأنشده هذه الأبيات. انظر شعر في رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين، جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ٦٧. وكذا شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين، جمعه وحققه عبد الله بن حامد الحامد، ص ٤٠، ٤١.

(٢) النوار: النفرة عن الشر والقبيح انظر شعر في رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ٦٧.

(٣) كان شاعر الأزد اشترك في حروب الردة وكان النبي، عليه السلام، أمر عليهم عمرو بن العاص، ولما مات النبي ﷺ خشي عمرو بن العاص أن يرتدوا فاستأذنهم بالرجوع إلى المدينة فقال مجفنة يطمئنه ويشجعه وقيل اسمه محقبة. انظر شعر في رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين، جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٥) مران بن ذي عمير بن أبي مران الهمذاني: كان من ملوك همذان وأسلم فيمن أسلم ولما سمع أهل اليمن بوفاة الرسول ﷺ تكلم سفهاء همذان بما كرهه حلماؤهم فقام عبدالله بن مالك الارجي فذكر كلامه ثم قام مران فتكلم وأنشد له هذه الأبيات التي رثى بها النبي ﷺ شعر في رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين، جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ١١٤.

كـــان فينـــا هـــو الـــدليلُ عليـــه ... كـــل هـــذا دليلُـــه التنزيـــلُ
يـــا لهـــا رحمـــةً أصـــيبتْ بهـــا النـــا ... س تَوَلّـــت وحـــان منهـــا الرَّحيـــلُ
جـدعت قـومي الأُنـوفَ وأَجْـرَت ... دَمْـــعَ عَـــين للجفـــون هُمُـــولُ
لـيس للنـاسِ يـا أُمـامَ مـن الأمـ ... ـــر فتيـــلُ وأَيـــن عنـــك التفيـــلُ
إنمـا الأمـر للـذي خَلَـقَ الخَلْـ ... ـــق وفي خَلْقـــه عليـــه دَليـــلُ
قُـلْ لهـذا الإمـامِ عضـدَكَ في الحـر ... ب علـى النـاسِ حاسِـدٌ وبكيـلُ[1]
إن همـذان يمســكون هـدى الله ... ومـــــران بالوفـــــاء كفيـــــل
إن تَكُـنْ جولـة فـنحن لـك اليـو ... م مـــــلاذُ إلى ذُراهْ تَـــــؤولُ
دينـــا ملـــةُ الـــنبي ولا قـــولَ ... لنـــا إلا مـــا نـــراك تقـــولُ
إنمـا اليـومُ مثـلً امـسِ وهمـذا ... نُ مـع الحـقِ حيـث زال تَـزولُ
أي قـــوم هـــم إذا نـــزل المـــو ... تُ وصـــاروا أنهـــم إكليـــلُ
ثـم نـادوا بـأنهم قهـروا النـا ... سَ كمـا يَقْهَـرُ البكـارَ الفحـولُ
لا يـــردُّ الجـــريحُ نائبـــةَ الجـــر ... حِ ولا الحـــقُّ يزدهيـــه القتيـــلُ[2]

وقد شارك بعض شعراء القبائل الذين أسلموا - في تصوير الفاجعة التي أحلت بالمسلمين بوفاة رسول الله ﷺ، فنجد عامر بن الطفيل[3] يشارك في رثاء رسول الله ﷺ ببيتين من الشعر يذكر فيهما مشاركة الأرض والسماء في حالة الحزن التي أصابت كل شئ في المدينة المنورة وصفه ﷺ بالنور، و وأشار إلى دوره في بناء الدولة الإسلامية ولم شتات الأمة، حيث هدى الناس إلى الحق ووضع لهم منهاجاً يسيرون عليه وكانوا لا يعرفون المنهاج فيقول:

(١) بكيل: الدقيق يخلط بالسوق والتمر بالسمن في إناء واحد وقد بلا باللبن أي خليط.
(٢) انظر شعر في رسول العالمين من غير العالمين من غير أصحاب الدواوين، جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ١١٤.
(٣) عامر بن الطفيل بن الحارث الأزدي كان وافد قومه إلى رسول الله ﷺ ارتد قومه بعد وفاة النبي فقام يوصيهم وينصحهم بالثبات على الإسلام. انظر ترجمته في أسد الغابة في معرفة الصحابة عز الدين أبي الحسن على بن أبي الكرم محمد بن عبدا لكريم الشيباني المعروف بابن الأثير، ج٣، ص ٢٣. وكذا الحركة الأدبية في المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون، سليمان بن عبد الرحمن الزهير، ص ١٦٠.

بكَتِ الأرضُ والسماءُ على النو ... رَ الذي كان للعباد سراجاً
من هدينا إلى سُبُل الحق ... قَ وكُنَّا لا نعرفُ المنهاجا[1]

أما عمرو بن سالم الخزاعي[2] فيرى أن ما حل بالأمة من مصاب أعظم وأجل من كل بكاء فيقول معبراً عن جزعه لفقد النبي ﷺ:

لعمري لئن جادت لك العين بالبكا ... لمحقوقة أن تستهل وتدمعا
فيا حفص إن الأمر جل عن البكا ... غداة نص الناعي النبي فأسمعا
فوالله ما أنساه ما دمت ذاكراً ... لشيئ وما قبلت كفا وإصبعا[3]

لقد كانت المصيبة عظيمة تلك التي أعلن فيها عن وفاة رسول الله ﷺ. وكانت أشد ما تكون على صحابته الذين عاشوا معه أيامه يوماً بيوم. وفجأة يفتقدون ركن حياتهم الذي استندوا إليه وثبتوا به في وجه المحن التي تلاحقت. فأنى لهم أن يثبتوا بعد رحيله.

لقد كانت دموعهم غزيرة، ولوعتهم قاسية فعبروا عن الأسى بالتسليم بقضاء الله، وتذكر الخصال الحميدة التي عرفوها في نبيهم ﷺ، فأشادوا بهذه الخصال، وامتدحوا الأعمال العظيمة التي قام بها رسول الله ﷺ قبل وفاته. وقد عدد هؤلاء الراثون ألواناً من المصائب التي لحقت بهم بوفاته ﷺ لمنهم من فقد الصحاب والرفيق والأنيس، ومنهم من فقد الرحمة والعطف، ومنهم من انقطعت عنه صلة الرحم. إنه رحيل نبي ملأ حياتهم عدلاً ونوراً، ونشر فيها المحبة والهداية وبلغ رسالة مباركة قضى من خلالها على ظلمات الكفر وضلال الجاهلية.

ظواهر موضوعية وفنية في شعر الرثاء

(١) منح المدح، وأو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول ﷺ أو رثاه ابن سيد الناس، تحقيق عفت وصال حمزة، ص ١٤٢. وكذا الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن على بن حجر العسقلاني، ج٢، ص ٢٥١.

(٢) عمرو بن سالم من بني خزاعة خلفاء النبي في صلح الحديبية وكان عمرو يحمل لواء خزاعة يوم الفتح. مغازي الواقدي، الواقدي، تحقيق مارسدن جوني، ج٢، ص ٧٨٩، بيروت، عالم الكتب، ١٩٦٥م. وكذا الكامل في التاريخ، أبي الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، ج٢، ص ١٦٢، بيروت، دار صادر ١٩٦٥م.

(٣) الحماسة البصرية، للبصري، ص ١٩٦. وكذا الحركة الأدبية في المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين سلميان بين عبد الرحمن الزهير، ص ١٦١.

لقد كانت المصيبة التي ألمت بالمسلمين عندما رحل عنهم رسول الله ﷺ أعظم من أن تحدو أكبر من أن توصف. لأن الرسول ﷺ قد شغل طوال المدة التي عاشها نبياً المساحة العظمة في حياتهم.

وعلى الرغم من إيمان هؤلاء المسلمين بأن النبي ﷺ بشر مثلهم يمكن أن يتعرض للمرض والموت، لكنهم ذهلوا عندما وجدوه ميتاً.

ولم يكن حزنهم غضباً أو تمردا على قضاء الله، فهم أكثر الناس تسليماً بقضائه وإنما ألماً لفقده لوعة لفراقه.

وأشارت أبيات الرثاء التي قالها صحابة رسول الله ﷺ إبان الوفاة إلى حالات الفزع والهلع والدهشة التي أصابت المسلمين جميعاً، ولأن المحنة كانت عامة فكان رثاؤهم إياه له ﷺ دعوة عامة للبكاء، وكانت عيونهم عاجزة عن تلبية متطلبات الشجا واللوعة التي ألمت بالقلوب.

وعلى الرغم من أن الحدث الجلل قد استغرق الراثين، وحرك مشاعرهم وأثار أشجانهم، فإن نظرهم كان موجهاً إلى عالم الشعر يستمدون منه صورهم وتعابيرهم وتراكيبهم وجملهم الشعرية.

ومن هنا نستطيع أن نقرر أنهم اعتمدوا على التراث الشعري لشعر الرثاء.

وقد تكررت نفس المطالع البكائية عند شعراء الرثاء، وفي شعر الخنساء نجد مطالع تمثل – في رأينا – منطلقاً لموضوعات الرثاء عند الراثين للرسول ﷺ وخير ما يمثل ذلك قول الخنساء:

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى[1]

وقولها أيضاً:

يا عين جودي بدمع منك مسكوب كلؤلؤ حبال في الأسماط مثقوب[2]

(١) ديوان الخنساء، ص ٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.

لكن الذي نلاحظه أن الجانب الفني عند الخنساء في رثاء صخر وعند حسان بن ثابت ف رثاء الرسول ﷺ كان أغلب من الجانب الموضوعي وأن التنقيح والتثقيف كان له الغلبة في تشكيلة القصيدة.

وإذا كانت المرأة قد خاطب عينيها لتواجه بهما هول الخطب الذي حل بالمسلمين فإن الرجال الذين رثوا رسول الله ﷺ لم يجدوا عذراً لتلك العيون التي لا ترسل الدمع مدراراً فهذا الصديق رضي الله عنه لا يسأم البكاء على صاحبه وعندما يشعر بتأخر عينيه عن ذلك يحثهما قائلاً:

يا عين فابكي ولا تسأمي وحق البكاء على السيد![1]

كما يلوذ حسان بن ثابت بعينيه لمساعدته في تهدئة اندفاع عواطفه وغليان مشاعره فيشعر أنه لن يتمكن من إيقاف الدمع طوال الدهر:

فبكى رسول الله يا عين عبرة ولا أعرفنك الدهر دمعك تجمد[2]

ويقول:

فجودي عليه بالدمع وأعولي لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد[3]

ويبكي كعب بن مالك وهو يخاط بعينيه قائلاً:

يا عينُ بكى بدمعٍ ذري لخيْرِ البريَّةِ والمصطفى
وَبَكَى الرسولُ وحَقّ البُكا عليه لدى الحربِ عندَ اللِّقَا[4]

ونستطيع أن نقر أن الظاهرة نفسها موجودة عند الخنساء فيما نسب إليها من شعر، فنراها تقول فما رثاء أخيها:

والشمس كاسفة لملهكه ومـا استق القمر
والإنس تبكي وُلَّهاً والجن تسعد من سمر
والوحش تبكي شجوها لما أتى عند الخبر[5]

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ج١٨، ص ٤٠٠.
(٢) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٣٧٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٩.
(٤) ديوان كعب بن مالك تحقيق سامي العاني، ص ١٧٢.
(٥) ديوان الخنساء، ص ٦٣، دار التراث، بيروت ١٣٨٨هـ.

وتقول:

فخـــر الشـــوامخ مـــن قتلـــه وزلزلـــــــت الأرض زلزالهـــــــا
وزال الكواكـــب مـــن فقـــده وجللـــت الشـــمس أجلالهـــا[1]

وذهب بعض الرثاة إلى تصوير أثر موته ﷺ في أمته بل أنهم ذهبوا أبعد من ذلك عندما صوروا عناصر الطبيعة الحية والجامدة وهي تشهد وفاة رسول الله ﷺ فتحزن وتتأمل وتتأثر وقد أشار حسان بن ثابت إلى ذلك، فبين أن السماء والأرض شاركتا المسلمين في فجيعتهم برسول الله ﷺ إذ يقول في أثناء حديثه عن بكاء الناس:

يبكـــون مـــن تبكـــي الســـماء يومـــه ومـن قـد بكتـه الأرض فالنـاس أكمـدُ[2]

ويرى أبو ذؤيب الهذلي أن النجوم قد كسفت تأثراً بهذا المصاب العظيم:

كسـفت لمصـرعه النجـوم وبـدرها وتزعزعـت آطـامُ بطـن الأبطـح[3]

وكذلك فعلت الجبال والنخيل، وأنه يرمز بذلك إلى ما حل بالأمة نفسها من ذهول كاد يعصف بها يقول:

وزعزعـــت أجبـــالُ يثـــرب كلُّهـــا وتخيلـــها لحلـــول خطـــبٍ مفـــدحِ[4]

وأشار الشاعران مران بن عمير بن أبي إمران الهمذاني وعامر بن الطفيل إلى تأثير الطبيعة برحيل النبي ﷺ فقد شاركت الأرض والسماء في حالة الحزن التي أصابت كل شئ في المدينة المنورة فقل مران:

بَكـــتِ الأَرَضُ والســـماءُ عليـــه وبكـــاه خليلـــهُ جبريـــلُ[5]

وقال عامر بن الطفيل:

بكَـتِ الأرضُ والسـماءُ علـى النـو رَ الـذي كـان للعبـاد سـراجاً[6]

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٢.
(٢) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٣٧٧.
(٣) الروض الأنف لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي قدم له وعلق عليه وضبطه طه بعد الرؤوف سعد، ج٧، ص ٥٩٣.
(٤) المصدر نفسه، ج٧، ص ٥٩٣.
(٥) شعر في رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين، جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ١١٤.
(٦) منح المدح، وأو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول ﷺ أو رثاه ابن سيد الناس، تحقيق عفت وصال حمزة، ص ١٤٢.

وظهرت في مراثي الصحابة مشاعر القلق والاضطراب لانتهاء الصلة بينهم وبين ربهم. ففقد النبي ﷺ هو انقطاع للوحي ووقف للتنزيل، فكان ذلك أمراً أحسوه وشعروا به.

ويشير أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب إلى ذلك فيصور فجيعة المسلمين بانتهاء الوحي نتيجة لوفاة رسول الله ﷺ:

فقدنا الوحي والتنزيلَ فينا ... يروح به ويغدو جبرئيلُ
نبيكان يجلو الشك عنا ... بما يوحى إليه وما يقول[1]

ويؤكد حسان بن ثابت على عظم مصيبة الأمة الإسلامية فبموته ﷺ انقطع الوحي، وهو النور الذي كانوا يستضيئون به في دروب الحياة الشائكة وينقلون على هديه خطاهم فيقول:

تقطع فيه منزل الوحي عنهم ... وقد كان ذا نورٍ يغور وينسجد[2]

ويشير عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى هذه الحقيقة في تردد وذهول عندما لم يصدق خبر الوفاة:

وقلت يغيب الوحي عنا لفقده ... ما غاب موسى ثم يرجع كما رجع[3]

لقد منح رسول الله ﷺ الدنيا النور والضياء، فبدد عنها ظلمة الجهل والضلال، وعندما مات ﷺ أحس المسلمون بزوال ذلك النور فكثر تفجعهم وغلب على قلوبهم الألم والحسرة، فقد أشار حسان بن ثابت إلى اختفاء النور برحيل رسول الله ﷺ عندما قال:

فبيناهم في ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مقصد[4]

ويقول عن النبي ﷺ:

كان الضياء وكان النور نتبعه ... وكان بعد الإلَه السمع والبصر[5]

وكذلك قوله في قصيدة أخرى:

(١) نهاية الأرب، ج١٨، ص ٤٠٠، ٤٠١.
(٢) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي، ص ٣٧٨.
(٣) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام لبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن الخثعمي السهيلي، ج٧، ص ٥٨٧.
(٤) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٣٧٩.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٠. وكذا الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدي، ج٢، ص ٩٢.

مِـنَ الـذي كـان نُـوراً يُسْتَضَـاءُ بـه مُبَـارَكُ الأَمْـرِ ذَا حَـزْم وإِرْشَـادِ[1]

وعندما يتفجع كعب بن مالك ويذرف الدموع ينتبه إلى فقدان الضياء فيقول:

نَخُـصُّ بمـا كـان مـن فضـلِهِ وكـان سِـرَاجًا لنـا في الـدُّجَى
وكـان بشـيراً لنـا مُنْـذرا ونـوراً لنـا ضـوءه قـد أضـا[2]

وعندما يرحل رسول الله ﷺ عن دنيا المسلمين ترحل معه صفات الحلم والعلم والرحمة. هذا ما عبر عنه حسان بن ثابت في قوله للذين واره التراب:

لقـد غيَّبـوا حِلْمًـا وعِلْمًـا ورَحْمَـةً عَشـيَّةَ عَلَّـوهُ الثَّـرى لا يُوَسَّـدُ[3]

وإلى جانب هذه الصفات التي ذكرنا شواهد لها، عدد الرثاة مزايا أخرى كثيرة. فهو طيب العود، محض الأنساب، ماجد طيب، مصطفى صفوة الله، طاهر مرسل مجتبى، مبارك موفق حامي الحقيقة، ربيع اليتامى، وهو خير البرية وسيد الناس، عفو عن الزلات، عزيز عطوف حريص على الهداية والاستقامة.

إن رحيل رسول الله ﷺ قد ملأ الدنيا وحشة وظلمة فقد اختطفه الموت من بينهم فأوحشت البلاد وصارت من بعده كالقفار. لذلك رأينا هذا الإحساس يتكرر عند الصحابة الذين رثوه، قال حسان بن ثابت يصف هذه الوحشة:

وأمسـت بـلاد الحـرم وحشـاً بقاعهـا لغيبـة مـا كانـت مـن الـوحي تعهـد
قفـاراً سـوى معمـورة اللحـد ضـافها فقيـد يبكيـه بـلاط وغـرق[4]

ووصف الرثاة حال نساء النبي ﷺ اللواتي اضطرمت عواطفهن واحترقت قلوبهن وامتلأت بؤساً وشقاء. قال حسان بن ثابت عنهن:

أمسـى نِسـاؤك عَطَّلْـنَ البُيُـوتَ فَمَـا تَضْـرِبْن فـوَقَ عُـرى سِـتْرٍ بأَوْتَـادِ
مِثْـل الرَّواهِـبِ يَلْبَسْـنَ المُسـوح وقـدْ أَيْقَـنَّ بِـالبُؤْسِ بَعْـدَ النَّعْمَـةَ البـادِي[5]

(١) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٢٠٧.
(٢) ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق سامي مكي العاني، ص ١٧٢.
(٣) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٣٧٧.
(٤) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٣٧٩.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٨.

ولأن موت النبي ﷺ كان مفاجأة كبيرة هزت كيان المسلمين فقد ظهرت صورة الحياة بدونه مقيته لا فائدة منها وكان هذا الإحساس يراود أبا بكر عندما قال:

فكيف الحياة لفقد الحبيب وزين المعاشر في المشهد(١)

ثم نراه يتمنى الخلاص من هذه الحياة قبل أن يغادرها رسول الله ﷺ:

يا ليتني من قبل مهلك صاحبي غيبت في حدث على صخور(٢)

ولا يبالي حسان بن ثابت بمن يموت بعد رسول الله ﷺ عليه وسلم فنراه يصور هذا الإحساس فيقول:

مَن شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أحَاذِرُ(٣)

ومن الملاحظ أن بعض الرثاة قد نفذ خيالهم كالسهم إلى الدار الآخرة فتصوروا يوم القيامة وجنات الخلد التي وعد الله نبيه ﷺ بها، فيشير حسان بن ثابت إلى هذا المعنى إذ يقول:

وليس هوائي نازعاً عن ثنائه لعلي به في جنة الخلد أخلد(٤)

ولابد من الإشارة إلى أن موت رسول الله ﷺ قد أثار قلوب المسلمين جميعاً فذرفوا الدموع، وصعدوا الزفرات، وهيمنت على معظمهم مشاعر اليأس والتشاؤم. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً. وكان لابد من الاعتصام بالصبر والتأسي، واستيعاب المصيبة ثم احتواؤها والمسلمون قادرون على ذلك لأنهم عاشوا في كنف الرسالة، وفي ظل رسول الله ﷺ سنوات طويلة أكسبتهم القدرة على الانطلاق لمتابعة مسيرته في نشر الإسلام وتأدية رسالته فأدركوا بعد ذل كأن موت النبي ﷺ حقيقة لابد من التسليم بها. ويلخص عبد الله بن أنيس هذا بقوله:

ولكنَّني بباكٍ عليه ومُتْبِعٌ مُصِيبَتَهُ إنّي إلى الله راجعُ
وقد قَبَض الله النبيَّين قَبلَهُ وَعادٌ أصيب بالرُّزي والتَبابعُ(٥)

(١) الطبقات الكبر، محمد بن سعد كاتب الواقدي، ج٢، ص ٨٩.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٨٩.
(٣) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٣٨٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٠.
(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري، ج١٨، ص ٤٠١.

كما يقتنع سواد بن قارب أن أي فداء لا يمكن أن يعيد للنبي الحياة:

هـــذا وهـــذا لا يَـــرُدُّ نبيَّنـــا لـــو كـــان يفديـــه فـــداه ســـوادُ[1]

إن المعاني التي تضمنتها قصائد الشعراء في رثاء رسول الله ﷺ يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام: الأول يمثل شعور الراثي والثاني يعبر عن شمائل المرثي والثالث يدل على المعاني الإسلامية العامة.

ومن الملاحظ أنه قد اختلفت العناصر الأسلوبية في هذه الأقسام اختلافاً واضحاً من حيث اللغة والصور ووسائل الإيقاع.

فاللغة في القسم الأول يضم معجمها مواد المصيبة والبكاء والحزن والهم والحسرة والفقد وغيرها مما يماثلها، وهي موظفة في سياق عاطف تبدو فيه المفاجأة والتوتر.

أما القسم الثاني فالمعجم اللغوي فيه يماثل المعجم الموحي الذي يشتمل على تكرار اسم محمد وأحمد تأكيداً لسلطانه على القلوب والنفوس كما يشتمل على الشمائل الرفيعة التي تميز بها النبي ﷺ ونلاحظ في المراثي كثرة استخدام صيغ المبالغة في هذا القسم المدحي تأكيداً لمعنى التفجع يقول حسان بن ثابت:

حـامِي الحَقِيقَـةِ نَسَّـالِ الوديقـة فَكَّـا كِ العُنَـــاةِ كـــريم مَاجِـــدٍ عَـــالِ
كَسَّـــابِ مَكْرمـــةٍ مِطْعَـــأمِ مَسْـــغَبَةٍ وهَّـــابِ عانِيَـــةٍ جَفَـــاءَ شِـــمْلالِ
عَـــفٍ مَكَاسِـــبُهُ جَـــزْلٍ مَوَاهِبُـــهُ خَيْـــرِ البَرِيَّـــةِ سمـــحٍ غَـــيرَ نِكّـــالِ[2]

ولا يخفى تأثر حسان بن ثابت بالخنساء ي بائيتها التي تقول فيها:

حـامي الحقيـق تخالـه عنـد الـوغي أســـد ببيشـــة كاشـــر الأنيـــاب
ضـخم الدسـيعة بالنـدى متـدفقاً مـأوي اليتـيم وغايـة المنتـاب[3]

وقولها في داليتها المطلقة الموصولة:

يـا عـين فـابكي فتـى محضـاً ضـرائبه صـعباً مراقبـه سـهلاً إذ أريـدا[4]

(١) حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، زادة على فهمي، ج١، ص ٢٨٨.
(٢) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٢١١.
(٣) ديوان الخنساء، ص ١١.
(٤) المصدر نفسه، ص ٤٠.

وقولها في داليتها الأخرى:

ضخم الدسيعة ماجداً أعرافه كالبدر أوفى طلعة كالأسعد[1]

والقسم الثالث من معاني الرثاء الدال على المعاني الإسلامية العامة يتسم بالتأمل العقلي وإقرار الواقع فالموت حق على كل العباد، يقول عمر بن الخطاب:

لعمري لقد أيقنت أنك ميت ولكنما أبدى الذي قلته الجزع
وكأن هواي أن تطول حياته وليس لحي في بقا ميت طمع[2]

كما يئس الشعراء على انقطاع الوحي الذي كان يملأ حياة المسلمين أمناً، يقول أبو سفيان بن الحارث:

فقدنا الوحي والتنزيل فينا يروح به ويغدو جبرئيل[3]

ولكن الإسلام باق بكل أركانه، فقد تمت الرسالة وأصبح موت النبي ﷺ، وحياته سواء بعد تمام الرسالة، ويظهر ذلك بوضوح في قول سواد بن قارب:

ضخم الدسيعة ماجداً أعرافه كالبدر أوفى طلعة كالأسعد[4]

ومعجم لغة هذا القسم – كما هو واضح من الأمثلة التي قدمناها – يتسم بالواقعية العقلية فنجد فيه: الموت، الجهاد، الوحي، الحق وغير ذلك من الألفاظ ذات الدلالة العامة، فإذا وصف النبي ﷺ اختيرت له دلالات إسلامية كالمصدق للنبيين قبله كما في قول حسان بن ثابت:

مُصَدِّقاً لِلنَّبِيِّين الأُلَى سَلَفُوَا وأَبذَلَ النَّاسِ لِلمَعْروفِ لِلجادي[5]

ومما لا شك فيه أن الصور الفنية تختلف في الأقسام الثلاثة، فنجدها في القسم الأول معبرة عن عواطف جياشة تكثر فيها الصور التفجعية المعبرة عن غزارة الدموع

(١) المصدر نفسه، ص ٤٢.
(٢) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي، ج٧، ص ٥٨٧.
(٣) نهاية الأرب فيفنون الأدب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ج١٨، ص٤٠٠.
(٤) حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، زادة على فهمي، ج١، ص ٢٨٨.
(٥) الجادي: الذي يجتدي غيره، يطلب ما عنده.

التي فاضت حزناً على وفاة الرسول ﷺ، ولعل من أبرع هذه الصور تلك الصورة التشبيهية التي صورها حسان بن ثابت في قوله:

يا عين جودي بدمع منك وابتدري كما تنزل ماء الغيث فانشعبا
أو فيض غربٍ على عاديةٍ طويت في جدول فرق بالماء قد سربا

كما تتميز الصور الفنية في القسم الثاني من معاني الرثاء بتجلية معنى النور والهداية يقول حسان بن ثابت في إحدى مرثياته:

نُورُ أَضَاءَ على البَرِيَّةِ كُلِّهَا مَنْ يُهْدَ للنُّورِ المُبَارَكِ يَهْتَدِ[1]

ويصور ذلك كعب بن مالك بقوله:

نَخُصُّ بما كان من فضلِهِ وكان سِرَاجًا لنا في الدُّجَى[2]

ويقول حسان بن ثابت أيضاً:

كان الضِّياءَ وكان النورَ نَتْبَعُهُ وكان بعد الإله السَّمْعَ والبَصَرَا[3]

أما القسم الثالث فهو أقل الأقسام صوراً فنية إذ تغلب عليه الحقيقة دون المجاز.

وإذا نظرنا في التوظيف البديعي في شعر الرثاء وجدنا في القسم الأول المعبر عن عواطف الشعراء ألواناً منه تشارك في جمال الإيقاع في داخل الأبيات ففي شعر حسان بن ثابت نجده يكرر مادة البكاء في ثلاث تراكيب في بيت واحد فهو يقول:

يبكون من تكبي السماوات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد[4]

كما نجد حسان بن ثابت يلجأ إلى تكرار حروف معينة في أبياته لما في ذلك من دلالات صوتية أو نفسية أو تأثيرية وكأن ذلك ضرباً من الندب. من ذلك قوله وهو في شدة انفعاله وتأثره بموت الرسول ﷺ نجده يكرر المبني للمجهول (بورك) ثلاث مرات في دعاء باك لمثوى الرسول ﷺ:

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٨.
(٢) ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق سامي مكي العاني، ص ١٧٢.
(٣) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٢١.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧٨.

وبـورك لحـد منـك ضـمن طيبـا عليـه بنـاء مـن صـفيح منضـد[1]

ففي البيتين انعكاس لحالة الشاعر النفسية من تكرار كلمة (بورك) ثلاث مرات.

والظاهر أن الشعراء كانوا يقصدون من استخدام مثل هذا التكرار أن يوجهوا العقول والأنظار إلى معاناتهم وما يكابدونه من حسرة على فقد ذويهم.

وهكذا كان لتكرار بمثابة الضوء الكاشف الذي يسلطه الشاعر على الأعماق كي يسهل الاطلاع على خباياهم، ووعي الشعور الكامن فيها، فهو تكرار لا شعوري - كما تقول نازك الملائكة - يجئ في سياق شعوري كثيف يبلغ أحيانً درجة المأساة، ومن ثم فإن العبرة المكررة تؤدي إلى رفع مستوى الشعور في القصيدة إلى درجة غير عادية واستناد الشاعر إلى هذا التكرار يستغني عن عناء الإفصاح المباشر وإخبار القارئ بالألفاظ عن مدى كثافة الذروة العاطفية[2].

كما نجد حسان بن ثابت يستخدم حسن التقسيم مع الجناس وتوظيف حروف حلقية خمس مرات في إيقاع منتظم في قوله:

لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمةً عشية علوه الثرى لا يوسد[3]

ويستخدم الجناس والترصيع متعاقبين للدلالة على أثر مفاجأة موت الرسول ﷺ في نفسه فهو يقول:

فَظَلْتُ بعد وفاته متَلَدِّدًا يا ليتني صُبِّحْتُ سُمَّ الأَسْوَدِ[4]

كذلك نجد حسان بن ثابت يوظف الترصيع في قواف داخلية ثلاث مع حسن التقسيم الإيقاعي في قوله:

وَارى الزِّنَادِ وقَوَّادِ الجِيَادِ إِلىَ يَوْمِ الطِّرَادِ إِذَا شُبَّت بأَجْذَالِ[5]

(١) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، ص ٣٧٨.
(٢) مروج الذهب للمسعودي، ج٣، ص ٣١.
(٣) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، ٣٧٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٨.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢١١.

ونجد كعب بن مالك يوظف مادة البكاء فيجعلها فعل أمر مرتين ومصدراً مرة وذلك في قوله:

يـــا عـــينُ بكـــى بـــدمعٍ ذري لخيْـــرِ البريَـــةِ والمصـــطفى

وَبَكَـــى الرســـولُ وحَـــقّ البُكـــا عليـه لـدى الحـربِ عنـدَ اللِّقَـا[1]

وهكذا تألفت العناصر الأسلوبية في مراثي الشعراء للرسول ﷺ مع المعاني التي استلهمها الشعراء من هول هذه المصيبة الفاجعة لتبدع لنا قصائد معبرة عن حس إسلامي عميق الينابيع.

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق سامي مكي العاني، ص ١٧٢.

المصادر والمراجع

- أبطال عقيدة وجهاد، أحمد الشرباص، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، السنة الرابعة، العدد الثامن والعشرون، من شوال ١٣٩٢هـ/نوفمبر.
- أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، نورة الشملان، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨١م، الناشر عمادة شؤون المكتبات جامعة الرياض طبع في شركة الطباعة العربية السعودية العمارية، الرياض.
- أدب العرب في صدر الإسلام، حسين الحاج حسين، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- أدب غزوات الرسول أخبارها وأشعارها، موفق فوزي الجبر، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، دار الكتاب العربي.
- أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حياتهم آثارهم –نقد أثراهم، بطرس البستاني اللبناني، مكتبة صادر بيروت، الطبعة الخامسة.
- الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار للشيخ موفق الدين عبد الله قدامة القدسي، حققه وقدم له على نويهض، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، دار الفكر.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين أبي الحسن على بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- أسمى الرسالات، عبد الحميد الخطيب، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، دار الكتاب العربي، مصر.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق على محمد البجاوي، القاهرة، بدون تاريخ.
- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام عمر رضا كحالة مؤسسة الرسالة.
- البداية والنهاية للحافظ بن كثير، الطبعة الثانية ١٩٧٧م، مكتبة المعارف بيروت.
- تاريخ ابن عساكر لابن عساكر، رتبة وصححه عبد القادر أفندي، دمشق، مطبعة روضة دمشق، ١٣٢٩هـ.

- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- تاريخ الأدب العربي الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، عمر فروخ، الطبعة الثانية، بيروت، ذو القعدة ١٣٨٨هـ/ فبراير ١٩٦٩م، دار الملايين، بيروت.
- تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، شوقي ضيف، الطبعة التاسعة، دار المعارف.
- تاريخ الأدب العربي في الأندلس، إبراهيم على أبو الخشب، دار الفكر العربي، مطبعة المدني بالقاهرة.
- تهذيب سيرة ابن كثير مروان كحك خرج الأحايث النبوية الشريفة، فتحي الجندي، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.
- تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، منشورات محمد الزايه دار الفكر، بيروت، لبنان.
- الحركة الأدبية في المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، سليمان بن عبد الرحمن الزهير، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، مرار للطباعة الإلكترونية.
- حسان بن ثابت حياته وشعره، إحسان النص، دمشق، دار الفكر.
- حسان بن ثابت شاعر النبوة والإسلام رحاب عكاوي، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، دار الفكر العربي، بيروت.
- حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، جازي زاده على فهمي، سعادت روش، مطبعة سبى ١٣٢٤هـ/١٩٠٤م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٣٢م.
- الحماسة البصرية للبصري، عالم الكتب، بيروت.
- الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.

- حياة عمر محمود شلبي الطبعة الثانية دار الجيل بيروت.
- الخصائص الكبرى أو كفاية الطلاب اللبيب في خصائص الحبيب، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، دار الكتب الحديثة، عابدين، ١٩٩٧م.
- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب القراقرة، بيروت.
- دائرة المعارف الإسلامية، أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس.
- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، دار المعارف.
- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، دار صادر، بيروت ١٩٧٤م.
- ديوان الخنساء دار التراث - بيروت ١٣٨٨هـ.
- ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق سامي مكي العاني، نشر مكتبة النهضة، بغداد ١٣٨٦هـ.
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري تحقيق، إحسان عباس، طبعة الكويت، ١٩٦٢م.
- ذهول العقول بوفاة الرسول ﷺ لأبي تراب الظاهري، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، دار القبلة للثقافة الإسلامية.
- رجال مبشرون بالجنة أحمد خليل جمعة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م، دار ابن كثير، دمشق - بيروت.
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرءوف سعد، دار الفكر، بيروت.
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي المكتبة السلفية.

- سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي حقق نصوصه وخرج أحاديث وعلق عليه شعيب الأرنؤوط.
- السيرة الحلبية المعروفة بإنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية على بن برهان الدين الحلبي الشافعي وبهامشها السيرة النبوية والآثار المحمدية السيد أحمد زيني المشهور بدخلان المكتبة التجارية، مصطفى محمد.
- السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة بيروت، لبنان.
- السيرة النبوية لأبي الحسن على الحسني الندوي الطبعة الثانية، صفر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م دار الشروق جدة.
- السيرة النبوية للإمام الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد ١٣٩٥هـ/١٩٧٦م، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- شعراء حول الرسول ﷺ، عبد الله بن محمد أبو داهش، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، إصدار نادي المنطقة الشرقية الأدبي.
- الشعراء من أصحاب رسول الله ﷺ، نايف بن هاشم الدعيس البركاتي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م مطابع الرشيد.
- شعر الدعوة في عهد النبوة والخلفاء الراشدين، جمعه وحققه ووثقه وشرح غريبه وترجم لأعلامه ووضع فهارسه عبد الله بن حامد، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار اللواء للنشر والتوزيع.
- شعر السيرة النبوية دراسة توثيقية، شوقي رياض أحمد الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
- شعر عصر صدر الإسلام من منظور التطور الإسلامي محمد عادل الهاشمي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء.
- الشعر في رحاب النبوة دراسة أصولية تبحث في موقف الإسلام عن الشعر وحالة زمن الصدر الأول، مصطفى عيد الصياصنة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، منشورات نادي الباحة الأدبي.

- شعر في رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين، جمع وتحقيق محمد الأطرش، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، دار المعالي.
- الشعر في موكب الدعوة، صادق عبد الحليم محمد مطبعة النهضة العربية ١٩٧٦م.
- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه يحيى الجبوري، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الشعر المنحول قضايا ونصوص، فضل بن عمار العماري، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، مكتبة التوبة، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، قدم له الشيخ حسن تميم، راجعه وأعد فهارسه الشيخ محمد عبد المنعم العريان، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ/١٩٩١م، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
- صور من حياة الصحابة، عبد الرحمن رأفت الباشا، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار النفائس، بيروت، لبنان.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدي، دار الفكر العربي، مؤسسة مصرية للطباعة والنشر.
- العمدة ابن رشيق، تحقيق مفيد محمد قيمحة، طبعة دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ/١٩٨٣م.
- الفصول في سيرة الرسول ﷺ للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير تحقيق وتعليق محمد العيد الخطراوي، محي الدين مستو.
- في الأدب العربي القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسه منه العصر الجاهلي - صدر الإسلام - العصر الأموي، محمد صالح الشنطي، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، دار الأندلس للنشر والتوزيع.
- قبسات من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام عبد المعطي الضاهر مكتبة الفارابي.

- قطوف شعرية جمع وترتيب محمد أمين عبد الرحمن، الرياض ١٤٢٣هـ، مطابع الأيوبي.
- الكامل في التاريخ لأبي الحسن على بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، بيروت، دار صادر ١٩٦٥م.
- كعب بن مالك الأنصاري شاعر العقيدة الإسلامية، سامي مكي العاني، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، دار القلم، دمشق.
- محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- مختارات شعرية قام بجمعها وضبطها وشرحها بدر بن عبد الله الناصر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، دار الصميعي للنشر والتوزيع.
- مستشارون حول الرسول، على بن عائد المالكي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، مركز خدمة المؤلف.
- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد الأبشيهي، تحقيق وتقديم عبد الله أنيس الطباع، دار القلم، بيروت، لبنان.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص عبد الرحيم بن أحمد العباسي، حققه وعلق على حواشيه ووضع فهارسه محمد محي الدين بن عبد الحميد، ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م، عالم الكتب، بيروت.
- مع الرعيل الأول محب الدين الخطيب، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
- مغازي الواقدي للواقدي، تحقيق مارسدن جوني، بيروت، عالم الكتب.
- المفضليات، المفضل بن محمدبن يعلي الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، الطبعة السابعة.
- منح المدح، أو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول ﷺ أورثاه لابن سيد الناس، تحقيق عفت وصال حمزة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، نشر دار الفكر دمشق.

- من شعراء الإسلام محمد بن سعد بن حسين، طبعة ١٤٠٤هـ١٩٨٤م.
- موسوعة الشعر العربي، اختارها وشرحها وقدم لها مطاع صفدي وإيليا حاوي، أشرف عليها خليل حاوي، التحقيق والتصحيح نصاً ولغة ورواية أحمد قدامة، شركة خياط للكتب والنشر، بيروت، لبنان ١٩٧٤م.
- الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، الطبعة الثانية ١٩٧٢م، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.
- موسوعة المورد العربية دائرة معارف ميسرة مقتبسة عن موسوعة المورد منير البعلبكي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إعداد رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت.
- نصوص مختارة من الأدب العربي، دراسة وتحليل أدب صدر الإسلام، خليل أبو ذياب، دار عمار.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية في القاهرة.